فكرة التقدم وميلاد فلسفة المستقبل

«أولفين توفلر نموذجا»

أ. د. قاسم عبد عوض المحبشي(*)

الملخص

بات التفكير بالمستقبل اليوم هو الأفق الوحيد الممكن إذ إن استشراف المستقبل والبحث فيه لم يعد اليوم من باب الرجم بالغيب أو التنجيم أو التنبؤ أو التخمين والظن والشطح الصوفي، بل غدا اليوم ضرورة حيوية وجودية واستراتيجية للبقاء والعيش في عالم تعصف به الأحداث والمتغيرات بخطى سريعة الإيقاع فأيهما يحكم الآخر الماضي أم المستقبل؟ وكيف يمكن فهم وتفسير العلاقة الجدلية بين فكرة التقدم وفلسفة المستقبل؟ هذا ما سوف نعالجه في هذه الورقة البحثية من خلال التوقف عند فلسفة أوفين توفلر صاحب كتاب صدمة المستقبل ونظرية حضارة الموجة الثالثة الذي أكد أن ثمة حضارة جديدة آخذت تنبثق في حياتنا.

كلمات مفتاحية: (التاريخ، فلسفة التاريخ، التقدم، المستقبل، الدراسات المستقبلية).

Summary

Thinking about the future today is the only possible horizon, as looking into the future and researching it is no longer today a matter of divination, astrology, prediction, conjecture, conjecture, and mystical strife. Fast paced, which of them governs the other, the past or the future? And how can the dialectical relationship between the idea of progress and the philosophy of the future be understood and explained? This is what we will address in this research paper by stopping at the philosophy of Ovin Toffler, the author of the book Future Shock and the theory of the third wave civilization, who confirmed that a new civilization is emerging in our lives.

Keywords: (history, philosophy of history, progress, future, future studies).

(*) أستاذ فلسفة التاريخ والحضارة في كلية الآداب جامعة عدن وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

تمهيد

لما كان الإنسان كائنًا زمنيًا، فإن التفكير في التاريخ جزء من انشغالاته، وكل نظرة في التاريخ تظهر موقف الإنسان من الزمان ومداراته فالإنسان هو الكائن الزماني الوحيد، لأنه مفطور على حاستي الذاكرة والوعي والتوقع، إذ ينظم حياته داخل شبكة نسيجها الماضي والحاضر والمستقبل، هذا الحس الزماني يرجع إلى الحضارات البدائية، قال الشاعر (جون دن) «الكائنات ذوات الطبيعة الأدنى أسيرة الحاضر أما الإنسان فكائن مستقبلي». فقد توصل إنسان نياندرتال (نحو ٥٠,٠٠٠) سنة ق. م إلى دفن موتاه «وهو ما لا يفعله أي حيوان آخر»[١]. أنه يفكر في نوع من الوجود المتصل لهؤلاء الراحلين ثم أن الخوف من الموت ورغبة الإنسان في الخلود تعد من أقوى الدوافع التي حفزت الإنسان منذ أقدم العصور إلى التفكير في الزمان على أنه تغيرا مستمرا، ومن ثم جعله يبحث عن معنى المصير الذي ينتظر الإنسان بعد الحياة[٢].

ولكل ثقافة من الثقافات موقف خاص تجاه الزمن فمنها ما هومستقطب حول الماضي إذ حيث يرسخون في أذهان الأطفال الفكرة القائلة بأن الحكمة والحقيقةتكمن في الماضي.. ومثل هذه الثقافة تبقى قرونًا وآلاف من السنيين حبيسة العش البيئي نفسه. فكيف يمكن فهم وتفسير العلاقة الجدلية بين فكرة التقدم وفلسفة المستقبل؟ وكيف ازدهرت نظرية التقدم في الفكر الفلسفي الغربي الحديث؟ وما الذي يفسر انشغال عدد واسع من الفلاسفة والعلماء

(١) كولن ويلسون، جون جرانت، فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة فؤاد كامل مراجعة، شوقي جلال، مجلة عالم المعرفة عدد ١٥٩ مارس ١٩٩٢ ص٧.

(٢) لم تكن ملحمة جلجامش الا تمثيلا لذلك الصراع الازلي بين الموت ورغبة الإنسان في الخلود، «الإنسان الضعيف المغلوب المقهور في محاولته اليأسة التشبث بالوجود مدفوعًا بغزيرة حب الحياة والحفاظ على البقاء». ما الذي حملك على هذا السفر البعيد؟: أجاب جلجامش: جئت لاسال عن(لغز الحياة والموت)... وعلام تهيم على وجهك في الصحارى؟؟ أنه «انكيدو» صاحبي وخلي الذي احببته حبا جما لقد انتهى إلى ما يصير اليه البشر جميعا فافزعني الموت حتى همت على وجهي في الصحارى...أيكون في وسعي الا ارى الموت الذي اخشاه وارهبه؟ فاجابت صاحبة الحانة: «إلى أين تسعى يا جلجامش» أن الحياة «يقصد الابدية» التي تبغي لن تجد حينما خلقت الالهة العظام البشر قدرت الموت على البشرية واستأثرت هي بالحياة. طه باقر/ملحمة جلجامش ص١١٢-١١٦-١١٧-١٢٠. ينظر: أيضًا برستد، انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢، ص٧١.

بالدراسات المستقبلية؟ حول هذه الأسئلة وما يتصل بها سوف تكون مقاربتنا لموضوع بحثنا فيما هو متاح من مصادر ومراجع.

الإطار المرجعي

على مدى العقود الماضية أخذ الفلاسفة والمؤرخون يوجهون اهتمامهم في البحث والدراسة في مشكلة مستقبل التاريخ والحضارة بدء بالأديب الإنجليزي ماثيو أرنولد ١٨٢٢-١٨٨٨م في كتابة «الحضارة والفوضى» وكتاب الأمريكي (بروكس آدموز «الحضارة والاضمحلال» ١٨٩٣م وكتاب الألماني ماكس نوردو «الانحلال» وكتاب شبنجلر «سقوط الحضارة الغربية» وكتاب فرويد «عسر الحضارة» ١٨٢٩م وكتاب كارل كروس «الأيام الأخيرة للنوع البشري» وكتاب جرانت «زوال الجنس العظيم» ١٩١٦م وكتاب كولون ويلسون «سقوط الحضارة» وكتاب الألماني ألبرت اشيفتسر «فلسفة الحضارة» وما كتبه ارنولد توبيني «الحضارة في الميزان» و«الحضارة على المحك» ١٩٦٥ «الحرب والحضارة» وآل ديورنت في «قصة الحضارة» وكتاب هنتجتون «صدام الحضارات» وكتاب روجيه جارودي «حوار الحضارات» وكتاب فوكو ياما «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» وكتابات أولفين توفلر «صدمة المستقبل وخرائط المستقبل» وكتاب «الموجة الثالثة» وكتاب «تحوُّل السُّلطة» (المعرفة والثروة والعنف) في بداية القرن الواحد والعشرين) وكتاب «بناء حضارة جديدة» وكتاب توماس سي - باترسون «الحضارة الغربية.. الفكرة والتاريخ» وكتاب مارشال هو جبسون «مغامرة الإسلام» الوعي والتاريخ في حضارة عالمية وكتاب ارثرهيرمان «فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي» وكتاب «جغرافيا الحضارات» لبريتورولان. وثمة قائمة طويلة من الكتب التي تتناول الحضارة أو الحضارات صدرت في أوروبا وأمريكا في السنوات القريبة الماضية، وفي البلاد العربية الإسلامية منها؛ كتب، العلم والحضارة، لعبد العظيم أنيس والحضارة، لحسين مؤنس والحضارة عند مالك ابن نبي وفلسفة الحضارة لأحمد محمود صبحي والعقل والحضارة لعبد السلام نور الدين والإسلام والحضارة لأنور الجندي وفي معركة الحضارة لقسطنطين زريق والإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين١٩٦٥م والدين والحضارة لمحمد البهي وكتاب انتحار الحضارة الغربية لأبو الأعلى المؤدودي، ١٩٧٩، ومصطفى النشار، مدخل إلى فلسفة المستقبل. وهناك سلسلة طويلة من الإصدارات والمؤتمرات في المستقبل ومداراته. وسوف نقارب بحثنا في المحاور التالية:

أولًا: تحديد المفاهيم وتعريفها (التاريخ، فلسفة التاريخ، التقدم، المستقبل، الدراسات المستقبلية).

ثانيًا: فلسفة التقدم في السياق التاريخي.

ثالثًا: الموقف من التاريخ وميلاد فلسفة التقدم.

رابعًا: أوفين توفلر وفلسفة المستقبل.

الخلاصة.

أولا: تحديد المفاهيم وتعريفها (التاريخ، فلسفة التاريخ، التقدم، المستقبل، الدراسات المستقبلية)

لما كانت المشكلة المنهجية في صميم العلوم الاجتماعية والإنسانية تكمن في ذلك الالتباس القائم بين الرائي وما يراه، بين الذات التي ترى وموضوع الرؤية، إذ أنه من الصعب الفصل بين الذات الراصدة والهابتوس الخاص بها[١] والسؤال هو «كيف يمكننا إنجاز خطابا فكريا في موضوع تاريخي دائم الحركة والتحول والتغير والتبدل، شأن جميع الظواهر الاجتماعية والإنسانية التاريخية؟» إذ أن الباحث في هذا الحال يكون جزءا من الظاهرة المراد بحثها، بما تمارسه من تأثير مباشر أو غير مباشر في حياته وحياة جميع أفراد مجتمعه، «تلك الحياة التي نمنحها تسعة أعشار من وقتنا الذي نعيشه في عالمنا الواقعي المعيشي الفوري، بلا ماض ولا مستقبل، والتي تشكل فعلًا عصب الجسد الاجتماعي برمته أي «الحياة بلا مزايا» التي يسميها عالم الاجتماع جلبر دوران «بالجو الخانق»»[٢] ولما كانت الظاهرة التاريخية شديدة

(١) الهابيتوس مفهوم صاغه عالم الاجتماع الفرنسي، بيير بورديو (١٩٣٠-٢٠٠٢) بمعنى السمة أو العلامة أو التطبع أو السجية أو العقلية التي توجه السلوك توجيهًا عفويًا وتلقائيًا، وهو مجموع الاستعدادات الفطرية والمكتسبة والمتوارثة التي تعبر عن فاعلية الإنسان، في ظل شرط اجتماعي محدد، أنه مجموعة المواصفات التي نتوارثها بصفة مباشرة عن طريق التربية، أو بطريقة غير مباشرة، عن «طريق الاستلهام» ينظر، أحمد موسى بدوي، ما بين الفعل والبناء الاجتماعي؛ بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو، مجلة إضافات، العدد الثامن، حريف٢٠٠٩، ص١٢.

(٢) ميشيل مافيزولى، تأمل العالم: الصورة والأسلوب في الحياة الاجتماعية، ترجمة، فريد الزاهي، سلسلة المركز القومي للترجمة ٨١٢، القاهرة ٢٠٠٤ط١، ص١٥.

التعقيد ومتنوعة الأبعاد فمن الصعب الإحاطة بها من زاوية نظر منهجية وحيدة. بيد أن وتحديد المفاهيم وتعريفها هو الخطوة المنهجية الأولى في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، ذلك كونها مفاهيم ملتبسة وغامضة على الدوام لأن موضوعها ذاته متحرك ومتغير باستمرار إذ لا توجد نواة صلبة قابلة للتحديد والتعريف تصلح جوهرًا لتعريف المفهوم التاريخي كتلك المفاهيم التي نستخدمها هنا (التاريخ، فلسفة التاريخ، التقدم، المستقبل، الدراسات المستقبلية) وكل تعريف ليس إلا تعريفًا إجرائيا نسبيًا ومحتملًا للمعنى، إذ أن المفاهيم لا توجد في فلك الأفكار ومدونات اللغات فحسب، بل هي كائنات تاريخية شديدة الارتباط بسياقاتها الاجتماعية الثقافية المشخصة، ولكل مفهوم مكان وزمان ولادة، وسياق نمو وتجربة وخبرة ممارسة، وعلاقات قوة، ونظام خطاب ومدونة لغة، وفضاء فكر وحساسية ثقافة، وحقل تأويل وشفرة معنى وأفق تلقي... إلخ. ومادمنا نستعمل كلمات مختلفة بمعاني مختلفة فمن المهم أن نعّرفها وكل تعريف تحديد، وكل تحديد سلب.

١ـ مفهوم التاريخ:

تجدر الإشارة إلى أن التاريخ سيء التوافق مع التنميط (أي تصنيف الأحداث في أنماط) فليس من المستطاع إطلاقًا تقديم أنماط دقيقة لظواهر التاريخ كالحضارات، مثلما يقدم عالم البيولوجيا وصفًا نمطيًا لضرب من الحشرات أو الطيور، ذلك لأن حوادث التاريخ فريدة إذ أنه يتحدث «عما لم يراه أحد مرتين أبدًا»[١] كما أن المفاهيم المتصلة بالتاريخ ملتبسة ومضللة لأن موضوعها نفسه يتحرك ويتبدل ويتغير ويتحول باستمرار وفي كل الحضارات لا توجد نواة ثابتة وجوهر واحد قابل لتعريف وحيد يصلح جوهرًا لكل الحضارات، وكل تعريف هو تعريف إجرائي بحسب رؤية الدارس للظاهرة المدروسة. وكل تعريف ليس إلا تعريفًا اجرائيًا نسبيًا ومحتملًا للمعنى. ولإغراض هذا البحث نقصد بالتاريخ كل التطور الدائم المستمر في الحضارة والثقافة والمدنية. والتاريخ الذي تعنيه هنا هو تاريخ الإنسان آدم وأبناءه أبن الأرض الذي خلقة الله من عناصر فاسدة وجعله يسفك الدماء ويفسد في الأرض أدنه تاريخ قابيل الذي بداء بجريمة قتل. أنه تاريخ الخوف والجهد والسعي والكد والصراع والتدافع والتنافس والنزاع والحرب والسلام والتعايش والحوار. ولكل كائن في هذا الكون

(١) بول فين، أزمة المعرفة التاريخية: فوكو وثورة في المنهج، ترجمة، إبراهيم فتحي، دار الفكر، القاهرة_ باريس ١٩٩٣، ط١.

تاريخ واحد هو تاريخه الطبيعي الذي هو طبعة ونظام سلوكه وقواعده وقانونه.مقاومة الفناء ودفاع عن البقاء ولكن للإنسان تاريخين: «تاريخ طبيعي يشارك به جميع الكائنات الطبيعية وتاريخ وضعي يضعه لنفسه و يضع فيه العلوم والآداب والفنون والسياسة والأخلاق والتشريع والزراعة والصناعة والعمارة. ولا يكون التاريخ إلا حركة وصراع وتكيف بالتطور وتطور بالتكيف ورد فعل واتخاذ موقف في مواقع محمية وتبرير المواقف وتحصين المواقع بما يحقق القوة والحماية والعافية والآمن والآمان ولا يكون التاريخ إلى مجمل تاريخ صراع الإنسان ومواقفه إزاء الطبيعة الذي هو قصة تطوره الذي هو قصة تكيفه الذي هو رد فعل الإنسان ومواقفه إزاء الطبيعة بما فيها طبيعته هو التي هي أشد الطبائع عنادًا وتمردًا على التطويع واستغلاقًا على الفهم والتاريخ تاريخان :تاريخ الضرورة والواقع والحياة وهو التاريخ الفعلي الذي يدور حول محول التجارة والحرب والاحتكار وتلك حقيقة لا خير ولا شر ولا خير ولا جبر ولا اختيار، بل سنة من سنن الله سبحانه وتعالى وحقيقة من حقائق التاريخ فيه فقراء ضعفاء مغلوبون مقهورون يخدمون أغنياء أقوياء غالبين قاهرين في السلم و يدافعون عنهم في الحرب. وتاريخ متخيل: تاريخ الحلم والأمل والرجاء والمثال الذي نريده ونتمناه ونحلم به يدور حول محور العمل للإنتاج واللعب للابتهاج والاكتفاء بالذات والاستغناء عن الغير والعدل والخير والجمال للجميع»[(١)] والتاريخ هو تاريخ صراع وتدفع بين الناس قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وهذا ما أدركه أبن خلدون ببصيرته الثاقبة عندما عرف التاريخ بقولة: «التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشيء عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران لطبيعته من الأحوال»[(٢)].

٢ـ فلسفة التاريخ:

يعد فولتير أول من استخدم كلمة «فلسفة التاريخ» بالمعنى الحديث للكلمة، من حيث هي

(١) مدني صالح: في مهب عواصف التاريخ، مجلة الموقف الثقافي العدد ٤٠ تموز- آب ٢٠٠٢ السنة السابعة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة بغداد، ص٦-٣٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان غير مؤرخة ص٢٥.

فرع جديد من فروع المعرفة الإنسانية، تدرس التاريخ دراسة عقلية ناقدة، ترفض الخرافات والأوهام والأساطير والمبالغات. ونعني بفلسفة التاريخ Philosophy of history دراسة الأسس النظرية والمنهجية للدراسات التاريخية والممارسات والتغيرات الاجتماعية الحاصلة على مدى التاريخ، كما يمكن تعريفها على أنها دراسة التاريخ دراسة عقلية ناقدة ترفض جميع الخرافات وتنقح التاريخ من الأساطير والقصص والمبالغات وكل رواية غير مقبولة عقليًا أو محتملة الشك، وهي فرع من فروع الدراسات الفلسفية الأساسية.

٣ـ نظرية التقدم:

أفضت التحولات التاريخية التي شهدتها أوروبا منذ بدء عصر النهضة، إلى تبلور مفهوم جديد لمعنى التاريخ وحركته وتطوره، هو مفهوم التقدم الإنساني الذي لا حدود له ويرى (تشارلز ريد) «أنه ليس هناك فكرة أخطر من فكرة التقدم مارست تأثيرًا كبيرًا في الثقافة الحديثة أو من المرجح إن تمارس تأثيرًا أكبر منها في المستقبل»[١].

والتقدم كمفهوم فلسفي عملية انتقال من البسيط إلى المعقد ومن الحياة الأدنى إلى الأعلى وإن كان قليل التداول في الخطاب الفلسفي المعاصر بعد أن وجهت له أنتروبولوجية ليفي شتراوس ضربة بنيوية شبه قاتلة، فإنه يحتفظ بدلالته التاريخية بوصفة مفهوما يدل على حركة الانتقال التاريخي من التخلف إلى التقدم ومن الأقل تقدما إلى الأكثر تقدما.

❐ مفهوم المستقبل:

يعد مفهوم المستقبل من المفاهيم الفلسفية التي ازدهرت في الدراسات المعاصرة ويعني كل ما سوف يأتي بعد الحاضر مباشرة والمستقبل هو جزء لا يتجزأ من مقومات الحياة الإنسانية يبقى الإنسان نسيج وحده، بقدرته على التصرف في الحاضر على أساس الخبرة الماضية المدروسة ضمن شروط النتائج المستقبلية، والإنسان بافتراضه المستقبل، يحتمل حاضره ويطيقه ويجعل ماضيه ذا معنى، فالماضي والحاضر ومستقبلاتهما يتداخلان ويتحابكان في توقع الأعمال المستقبلية والتنبؤ بها ويعبر مفهوم المستقبل عن كل ما سيحدث في وقت بعد الوقت الحاضر. ويعتبر وصوله لا مفر منه، بسبب وجود الوقت وقوانين الفيزياء، ونظرا للطبيعة الجلية للواقع، وحتمية الطبيعة. مفهوم المستقبل والخلود موضوعان رئيسيان في الفلسفة، والدين، والعلم،

(١) ج. ب. بيري، فكرة التقدم، ص٧.

واستعصت أعظم العقول على الدوام إيجاد تحديد لهما غير مثير للجدل. يشيع استخدام التصور الخطي للوقت؛ باعتبار المستقبل هو جزء من خط الزمن المتوقع له أن يحدث. أما المستقبل في النسبية الخاصة، فهو المستقبل المطلق، أو المخروط الضوئي للمستقبل.(١)

❐ الدراسات المستقبلية:

ازدهر علم دراسات المستقبل منذ الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي لتشمل مواضيع محددة المحتوى وجدول زمني للعمل ومنهج علمي، يتحدث مع عالم اليوم، الذي يتسم بتغيير متسارع علم المستقبليات أو الدراسات المستقبلية (بالإنجليزية: Futures studies أو Futurology) هو علم يختص بالمحتمل والممكن والمفضل من المستقبل، بجانب الأشياء ذات الاحتماليات القليلة لكن ذات التأثيرات الكبيرة التي يمكن أن تصاحب حدوثها، حتى مع الأحداث المتوقعة ذات الاحتماليات العالية، مثل انخفاض تكاليف الاتصالات، أو تضخم الإنترنت، أو زيادة نسبة شريحة المعمرين ببلاد معينة، فإنه دائما ما تتواجد احتمالية «لا يقين» (بالإنجليزية Uncertainty): كبيرة ولا يجب أن يستهان بها. لذلك فإن المفتاح الأساسي لاستشراف المستقبل هو تحديد وتقليص عنصر «لا يقين» لأنه يمثل مخاطرة علمية. تلك الدراسات التي تتناول المستقبل في آجال زمنية تتراوح بين ٥ سنوات و٥٠ سنة. وفي كتابه «تفكير جديد لألفية جديدة» يعترف سلوتر R. Slaughter بأن إطلاق صفة متعدد التخصصات على الدراسات المستقبلية وصف دقيق ومجال جديد من الدراسات الاجتماعية هدفه الدراسة المنظمة للمستقبل.

ويحدد هارولد شان Harold Shan الغرض من هذا التخصص العلمي الجديد في مساعدة متخذي القرارات وصانعي السياسات على الاختيار الرشيد من بين المناهج البديلة المتاحة للفعل في زمن معين، وبالتالي فإن الدراسات المستقبلية لا تتضمن فقط دراسة معلومات الماضي والحاضر والاهتمام بها، ولكنها تستشرف المستقبلات البديلة الممكنة والمحتملة واختيار ما هو مرغوب منه وتعتمد الدراسات المستقبلية على نطاق معرفي أوسع من الفلسفة والعلم يستند إلى أربعة عناصر رئيسة هي:

أ - أنها الدراسات التي تركز على استخدام الطرق العلمية في دراسة الظواهر الخفية.

(١) ينظر، الموسوعة الحرة ويكيبيديا جوجل.

ب- أنها أوسع من حدود العلم فهي تتضمن المساهمات الفلسفية والفنية جنبًا إلى جنب مع الجهود العلمية.

ج - أنها تتعامل مع مجموعة واسعة من البدائل والخيارات الممكنة وليس مع إسقاط مفردة محددة على المستقبل.

وتهدف فلسفة المستقبل إلى:

١- استكشاف فعال ودقيق لفهم العالم كما هو بكل تعقيداته وتداخلاته.

٢- تطوير مجموعة منوعة واسعة من التطورات المستقبلية البديلة.

٣- إعادة تشكيل مفاهيم الفكر الإنساني المتعلق بالوضع الإنساني وبالقيم الإنسانية.

٤- تصميم تدابير وترتيبات اجتماعية جديدة تكون أكثر فعالية لخلق العالم الأفضل الذي يتطلع إليه الإنسان

ثانيا: فكرة التقدم في السياق التاريخي

أفضت التحولات التاريخية التي شهدتها أوروبا منذ بدء عصر النهضة، إلى تبلور مفهوم جديد لمعنى التاريخ وحركته وتطوره، هو مفهوم التقدم الإنساني الذي لا حدود له ويرى (تشارلز ريد) «أنه ليس هناك فكرة أخطر من فكرة التقدم مارست تأثيرًا كبيرا في الثقافة الحديثة أو من المرجح إن تمارس تأثيرًا أكبر منها في المستقبل»[١].

ونحن هنا سوف نسلط الضوء للكشف عن البدايات الأولى لنشؤ فلسفة التقدم وتبلورها في القرن الثامن عشر؛ فكيف ظهرت فكرة التقدم ومن أول القائلين بها، وكيف جرت صياغتها وما هي دلآلاتها وما هي نتائجها؟

في الواقع لم تنشأ فلسفة التقدم في الفراغ، بل نشأت في السياق التاريخي الحي لحركة المجتمع وتطوره، على الصعد الحضارية، والثقافية والمدنية كافة، وبهذا المعنى نفهم قول صاحب كتاب «فكرة التقدم»: «أنه ما كان لنظرية التقدم الإنساني أن تتوطد بالحجج المجردة، بل كان يحكم عليها من خلال الدليل الذي يقدمه التاريخ نفسه»[٢].

(١) ج. ب. بيري، فكرة التقدم، ص٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٧.

أن الحاجة إلى رؤية فلسفية جديدة كانت تستمد مقوماتها وحوافزها مما كان يجري في العملية التاريخية في الحاضر الأوروبي من متغييرات وأحداث تقدمية وبما كان يبشر بها المستقبل هناك من آفاق ابعد غورًا أو أكثر تقدمًا، وكانت قوى البرجوازية الصاعدة، ترى في التقدم مسيرتها وترسم عليه مستقبلها، إذ أخذت فكرة التقدم تنتشر وتشيع في نسيج الثقافة الأوروبية عقيدة عامة وفلسفة شاملة في ذلك العصر، وهذا ما يراه أحمد محمود صبحي بقوله: «إن نظرية التقدم لم تكن مجرد أراء يرددها مفكرون و إنما كانت اقتناعًا عامًا لدى أهل ذلك العصر»[١] و إذا كانت فلسفة التقدم قد انطلقت من تأكيد قيمة الإنسان وقدرته على صناعة التاريخ، فأنها في بدء الأمر قد اكتسبت بعدين أساسين: البعد الأول يتمثل في نقد كل ما يحول دون انطلاقة الإنسان و يكبل قواه وهذا ما شهده القرن السابع عشر، الذي يعد قرن تحطيم الأوثان، إذ كان ملتون في ملحمة «الفردوس المفقود» يهاجم بلا هوادة المؤسسات التقليدية، و يرى «أن أعظم عبء في العالم هو الخرافة، ليست المتعلقة بالطقوس الكنسية وحدها، بل بالآثام المتخلية وبفزاعات الإثم في البيت أيضًا»[٢] وفي كتابه «الاوياثان» ١٦٥١ سار هوبز بهذه النزعة النقدية ضد الخرافات والأوثان إلى نهايتها المنطقية فالوثنية كما يقول هوبز «عبارة عن عبادة الوثنيين لأفكارهم ذاتها، ولم تكن تلك العبادة ممكنة لولا أن الوثنيين الغارقين في ضلال الجهل لم يدركوا أن أفكارهم ليست مكتفية بذاتها، بل سببتها الأشياء الخارجية وتوسطتها ملكة التمثيل»[٣].

لقد كانت الثورة النقدية الحاسمة ضد الخرافات والأفكار المطلقة قد اكتملت عند جون لوك وهيوم، وانتقلت إلى فرنسا إذ تلقفها الفلاسفة الماديون أمثال كوندياك وهلفسيوس ودولباخ، الذين ارجعوا كل أفكار الناس إلى الخبرة الحسية المادية، وفي كتابه «رسالة في الإحساسات عام ١٧٥٤» يذهب كوندياك إلى أن أفكارنا تنتجها دائما قوى مادية لا وجود لـ عقل أو روح مستقل عن الحواس والخبرة الحسية[٤].

أن إعادة المكانة للإنسان الكائن الحاس وتأكيد أهمية العالم الحسي ونقد أفكار العرق المورثة وتحطيم الخرافات، كان له بالغ الاثر في صعيد تبلور فكرة التقدم التي وجدت أول

(١) أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص١٧٧.
(٢) ينظر: ديفد هوكس، الايدولوجيا ص٢٣.
(٣) ديفيد هوكس، الايدولوجيا، ص٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٥.

صياغة لها على يد المفكر الفرنسي الديكارتي (فونتيل) في كراسه «محاورات الأموت عام ١٦٨٣» الذي أكد فيه قدرة الإنسان الخلاقة على الحلم والتقدم والكمال، «فلا حدود لتقدم المعرفة الإنسانية والإنسان لن يشيخ بل يتجاوز نفسه باستمرار وفي كتابيه «استطراد حول القدماء والمحدثين» وحول تعدد العوالم ١٦٨٦ ذهب فونتيل إلى إن الإعجاب المفرط بالقدماء هو أحد العوائق الرئيسة للتقدم الإنساني الذي يصعب إيقافه أبدا»[١] و إذا كانت فلسفة التقدم قد انطلقت من نقد الماضي ونقد تقديس القدماء وتحطيم الأصنام، فأنما أرادت تمهيد السبيل لتصور جديد للتاريخ يقوم على أساس من تأكيد الحاضر واستشراف المستقبل، بل إن نقد الماضي وتقاليده الذي ساد في عصر التنوير كان شرطًا ضروريًا لتسويغ الحاضر وقيمه المعرفية والحضارية والمدنية. وكان المنور الفرنسي فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) بين أشد المثابرين في هذا المشروع، وكان شعاره (اسحقوا الأباطيل) صيحة الحرب ضد المؤسسة التقليدية.

ويعد فولتير أول من استخدم كلمة «فلسفة التاريخ» بالمعنى الحديث للكلمة، من حيث هي فرع جديد من فروع المعرفة الإنسانية، تدرس التاريخ دراسة عقلية ناقدة، ترفض الخرافات والأوهام والأساطير والمبالغات وتعود أهمية فولتير هنا لما كان يمثله في عصر التنوير من قيمة نقدية مهمة، ففي شخصيته وأدبه الجاد والساخر وفي منهجه النقدي العنيف، وأسلوبه اللاذع وقوة أفكاره كان خير من عبر بعمق عن مزاج عصر التنوير واتجاهاته التقدمية[٢]، وكان شديد التفاؤل في قدرة الإنسان وعقله في التقدم، إذ يقول: «يمكننا إن نعتقد إن العقل والصناعة سوف يتقدمان دائما أكثر فأكثر وأن الفنون المفيدة ستتحسن، وأن المفاسد التي حلت بالإنسان سوف تختفي بالتدرج»[٣] ويرى فولتير أن الإنسان يتقدم من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية بفضل ما يمتلكه من عقل طبيعي وأن الإنسان خير بطبعه هناك أمل في ارتقائه وبلوغه حد الكمال في حالة المدنية المنظمة تنظيمًا عقليًا[٤]وقد كان من أشد المنتقدين للتعصب والانغلاق العقائدي أما الفيلسوف الآخر الذي أجاد التعبير عن عقيدة التقدم الحديثة فهو كوندورسيه (١٧٤٣-١٧٩٤م) الذي عاش عهد الثورة الفرنسية عام

(١) ج. ب. بيري، فكرة التقدم، ص١١٧.

(٢) كولنجوود، فكرة التاريخ، ص١٤٨.

(٣) أندريه كريسون، تيارات الفكر الفلسفي من العصور الوسطى حتى العصر الحديث، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات بيروت ط١ ١٩٦٢، ص١٥٢.

(٤) عبد العزيز عزت، فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، ص١١٨.

١٧٨٩م هذه الثورة التي نادى لسان الكون في العالم من خلالها، لابـ «الخمول والانقباض» بل بالتحرر والتقدم والكمال، إذ ينزوي هذا الفيلسوف في فندق صغير خارج باريس هربًا من بطش الطاغية روبسبير، ليكتب «معالم صورة تاريخية لمظاهر التقدم في الفكر البشري» مشيرًا إلى أنه «ليس هناك حدود مرسومة لتقدم الملكات الإنسانية لأنه لا حد على الإطلاق لقبول الإنسان للكمال... وأن مسيرة الإنسان نحو الكمال لن تعرف حدًا ولا نهاية... وسيأتي زمن لن تشرق فيه الشمس إلا على الأمم الحرة وحدها، الأمم التي لا تعترف بسيد آخر غير عقلها، ولن يجد الطغاة ولا العبيد ولا الكهنة وأتباعهم الأغبياء المنافقون أي مكان لهم، اللهم إلا على صفحات التاريخ وخشبة المسرح»[١] بهذه النبرة الواثقة والشجاعة كتب كوندوسيه كتابه الذي يدعو إلى تحرير الإنسانية من قيود الظلم والطغيان وكان شديد التفاؤل بالمستقبل والتقدم نحو الكمال.

أن هذا التصور للتقدم غير المحدود أخذ يشق طريقه في الدوائر الثقافية الأوروبية الفرنسية والألمانية والإنجليزية إذ نجد أن معظم مفكري ذلك العصر، قد أنطلقوا منه في إنشاء نظرياتهم المختلفة في الشأن الإنساني أمثال شارل مونتسيكو (١٦٨٩-١٧٥٥م) في كتابه «روح القوانين» عام ١٧٤٨ وروبير جاك تيرجوه (١٧٢٧-١٧٧١) في مقالات في (التاريخ العام)، حيث أكد هذا الأخير إن التاريخ العالمي بكونه تقدمًا للجنس البشري لم يوجهه العقل الإنساني، بل كان مدفوعًا بحاجات الناس وغرائزهم وطموحاتهم، ولو ساد العقل، لتوقف التقدم، والحرب والتنافس والعواطف الخطرة والمغامرة الجسورة هي أقوى الدوافع للتقدم، والإنسان يتقدم بارتكاب الأخطاء والمجازفة نحو المجهول، وقد كان تيرجوه أول من قال بقانون المراحل الثلاث اللاهوتية والفلسفية والعلمية قبل اوجست كونت[٢].

وفي ألمانيا عبر عن هذه الفلسفة كثير من الفلاسفة، أمثال لسنج (١٧٢٩-١٧٨١) في كتابه (تربية الجنس البشري عام ١٧٨٠) وهيردر (١٧٤٤-١٨٠٣) في كتابه (نحو فلسفة لتاريخ الإنسان) عام ١٧٩١م) وفي بريطانيا كان المؤرخ ادوارد جيبون (١٧٣٧-١٧٩٤) في كتابه (انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها عام ١٧٧٦)، يذهب إلى القول «بينما سقطت الإمبراطوريات القديمة مثل اليونان وروما وأشور في الظلام»، فإن الحضارات الحديثة مثل

(١) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص١١٨.
(٢) ج. ي. بيري، فكرة التقدم، ص١٥٨.

بريطانيا كانت تحظى بمستوى من التقدم المادي «نظام فنون وقوانين وأخلاق، يجعل الانحدار إلى البربرية امرًا مستحيلًا»[١].

هكذا حلت الثقة بالإنسان وعقله وقدراته الحسية محل المشيئة الإلهية، وأخذ الفلاسفة ينظرون إلى التاريخ وكأنما هو حصيلة نشاط الإنسان وخبراته يسير في حركة تقدمية خطية صوب الكمال والسعادة الدنيوية، هذه النظرة التقدمية للتاريخ والحضارة سرعان ما ألقت بمراسيها على شاطئ الأطلنطي في القرن الثامن عشر لتجد أرضا خصبة في القارة الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية، أذ كان الايمان الأمريكي بالتقدم يستند إلى تراث غني التفكير بألفية سعيدة انطلاقًا من الماضي الكالفيني(*) للأمة، هذا من جهة ومن جهة أخرى يستند إلى المسلمة النيونتنية التي تقول أن القوانين الطبيعة ثابتة ويمكن اكتشافها بالعلم التجريبي وبالعقل السليم، ولما كان الإنسان كائنًا طبيعيًا في الأساس فإن الطبيعة الإنسانية ثابتة ويمكن اكتشاف قوانينها مرة واحدة والى الأبد[٢].

وقد كان لـ تحقيق الاستقلال الأمريكي عام ١٧٨٣ والنجاح في إقامة حكومة جديدة الأثر الكبير في تحويل المفهوم العقلي من التقدم إلى عقيدة واقعية في الوسط الثقافي الأمريكي إذ كتب «توم بين» «نحن الأمريكيين، نملك القوة والقدرة على أن نبدأ العالم من جديد، وأن العالم لم يشهد موقفًا مماثلًا منذ أيام نوح حتى الآن، ونحن نقف على عتبة ميلاد عالم جديد»[٣] وكان «توماس جيفرسون» يطلق على أمريكا اسم «إمبراطورية الحرية» إذ كتب يقول «إن قدرنا أن نكون حائلًا دون عودة الجهل والبربرية وإن أوروبا القديمة سوف تعتمد علينا ونحملها على كاهلنا وتعرج بجانبنا تحت وطأة شباك القساوسة والملوك، ترى ماذا سنكون عندما تصبح القارة الجنوبية تحت سيطرتنا وما هو الموقف الذي سنكلفه كقوة حليفة للعقل والتقدم وسند للحرية في العالم»[٤] وفي عام ١٨٥٨ كتبت مجلة «هاربرز منثلى» «إن كل ما له علاقة بوضعنا وتاريخنا وتقدمنا، يعين الولايات المتحدة أرضا للمستقبل» ويكتب

(١) آرثر هيرمان، فكرة الاضمحلال، ص٣٣٣.

(*) نسبة إلى مذهب «كالفين» اللاهوتي الفرنسي البروتستاتي الذي يؤمن بان قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته.

(٢) دافيد مارسيل، فلسفة التقدم، جيمكس، ديوي، بيرد وفكرة التقدم الأمريكية، ترجمة د. خالد المنصوري، ص٤٠.

(٣) ديفيد مارسيل، فلسفة التقدم، ص٥٠.

(٤) ديفيد مارسل، المصدر نفسه، ص٢٨.

(هنري بلوسل) «أن أمريكا تمثل أعلى مرحلة في الحضارة والتقدم والتجديد، ويرى آرثر هيرمان إن فكـرة التقدم الأمريكية كانت تنطوي بداهة على نظرية علمانية للتاريخ، مناقضة للنظرة المسـيحية»[١]. وإذا كانت فكـرة التقدم قد ظللت بأفقها العام الفضـاء الثقافي الاور أمريكي في القـرن الثامن عـشر، فربما يعود ذلك إلى كونها تمثل حينذاك الشـكل المـدرك الذي اتخذته مشـاعر ودوافع وحاجات الطبقـة البرجوازية الفتية التي كانت تعيش أوج فتوتها وشـبابها، وقد كانت فكرة التقدم بما احتوت في ذاتها من قوة ديناميكية لتحريك الأفراد والأمم ودفعهم في اتجاه أنجاز الغايات والأهداف التاريخية التقدمية، كانت خير من يعبر ويسوغ ذلك الزخم من المتغيرات والأحداث التي كانت تضطرب في الحياة الواقعية للناس غير أنه من الخطأ الظن بان هذه النظرة التقدمية للتاريخ كانت هي النظرة الوحيدة التي تشـمل المشـهد الكلي للقرن الثامـن عـشر، بل على الضد من ذلك، يمكن القـول إن ذلك القرن قد شـهد تبلور نظرة مختلفة للتاريخ هي النظرة الرومانسية[*] إذ وعلى الضد من النظرة التي كانت ترى الطبيعية البشرية محكومة بقوانين ميكانيكية ثابتة، ومادية تجريبية صارمة، أخذت تبرز نظرة جديدة للطبيعية والإنسـان والتقدم والزمان والتاريخ، تسـتند إلى فكرة النمو العضوي والطبيعة الحية النامية، إذ حلت التوليدية والتاريخية محل الطريقة التحليلية الميكانيكية الآلية في الشـؤون الإنسانية، وبعـد أن كانت الرياضيـات النموذج الحق للعلم، أصبح «التاريخ هـو آخر محكمة التمييز» حسب شيللر[٢].

إذاّك تغـدو الحيـاة والطبيعيـة الحية بكل قوتهـا وحيويتها لا العقل المجـرد هو المقياس، هكـذا كان المفهـوم الرومانسي الذي يـرى النمو والتوسـع والتبدل والتطـور والارتقاء هي الأمور الأسـاس في الخبرة البشرية ومن ثم في الكون بأسره، هو الذي منح مفهوم التقدم زخمه الجديد، واتاح المجال واسـعًا لازدهار فلسفات التاريخ الكلية الهيجلية والماركسية والحيوية

(١) آرثر هيرمان، فكرة الاضمحلال، ص١٩٣.

(*) الرومانسـية حركة ثقافية فلسـفية أدبية، ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر، اهتمت في إبراز الجانب العاطفـي لا الجانـب العقلي من الطبيعـة البشرية وهي تعد رد فعل ضد تأويل الخـبرة البشرية تأويلًا ضيقًا بمصطلـح العقـل وحده كانت تعـبر عن الاعتقاد أن الحياة اوسـع من الـذكاء وأن العالم أكبر مما في وسـع الفيزياء أن تجد فيه، الباحث.

(٢) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ص٥٤.

العضوية[١] أذاك يبدأ الصدع الفكري في المعرفة التاريخية الحديثة ففي حين ترسخت فكرة التقدم والتطور المنطلقة من العقل الهندسي الديكارتي (المجرد) والميكانيكي النيوتوني الآلي، يظهر هناك من يرفض التقدم العقلي، و يرفض العقل برمته و يشكك بفكرة التقدم الآلي، و يعبر عن فكرة الاضمحلال والتدهور الحضاري. هذا هو ما فعله الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) (١٧١٢-١٧٧٨م) المنحدر من أسرة فقيرة، الذي ذاق مرارة الفقر والجوع والحرمان، وهو أول ناقد كبير للحداثة الأوروبية[٢] ففي كتبه «أصل التفاوت بين الناس عام ١٧٥٥» و«العقد الاجتماعي عام ١٧٦٢» و«المتوحش النبيل» هاجم روسو جميع الجوانب التقدمية للقرن الذي كان يعيش فيه واخضع كل شي امتدحه أسلافه إلى النقد والتحليل، وخلاصة ما قال: «إن التقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي التجاري ونظم الحكم الحديثة لم تحسن أخلاق البشر، بل جعلتهم أسوأ مما كانوا عليه، وأن الترف والجشع والغرور وحب الذات والحرص على المصلحة الشخصية»[٣] كلها إفرازات رديئة للحضارة الحديثة، و يرى تو ينبي إن «أول جملة من العقد الاجتماعي لـ روسو تقول «يولد الإنسان حرًا» ولكنه «مكبلًا بالقيود في كل مكان»[٤] القيود التي فرضها المجتمع الحديث بمؤسساته العقلية العلمية التقدمية» و إذا كان المفكرون ابتداء من هوبز فصاعدًا حكموا على المؤسسات والممارسات الاجتماعية القائمة بمعيار العقل... ففي حركة التفاف جذري أخضع روسو العقل نفسه للنوع ذاته من النقد الذي قام به الفلاسفة باسم العقل، وكان ما اكتشفه روسو إن العقل في الحقيقة و بالكامل ليس شيئًا طبيعيًا، فالعقل عنده هو الملكة التي أغوت الإنسان بالتخلي عن حالة الطبيعة ليصير متمدنًا وهي صفة مر يبة بكل تأكيد يقول روسو: «أكاد أجرؤ على تأكيد أن حالة التفكير هي حالة مضادة للطبيعة وأن الإنسان الذي يتأمل هو حيوان فاسد... العقل هو الذي يولد الأنانية و يقوي التفكير تلك الأنانية فالعقل هو الذي يجعل الإنسان مستغرقًا في ذاته بعيدًا عن الآخر ين والعقل هو الذي يقطع الصلة بكل ما يضايقه و يحزنه»[٥] هكذا يرفض روسو النهج

(١)جون هرمان راندال، تكو ين العقل الحديث، ص٥٠.

(٢)جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة جلال العشري دار الوطن العربي، بيروت، دون تار يخ، ص٥٥.

(٣) جان جاك روسو، اصل التفاوت بين الناس، ترجمة عادل زعيتر، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية القاهرة عام ١٩٥٤، ص٣٧.

(٤) تو ينبي، مختصر دراسة التار يخ، ج٢، ص٤٤٢.

(٥) ديفيد هوكس، الأيديولوجيا، ص٤٠.

الديكارتي الهندسي الذي يعامل الذهن والعقل وكأنه شي وجوهر حقيقي، و يرى أنه بواسطة دراسة الإنسان جعلنا أنفسنا غير قادرين على معرفته، وبديلًا عن معيار العقل المصطنع يقترح روسو معيارًا جديدًا لتقييم التقدم هو «الحالة الطبيعية الفطرية»[١].

وكان الحنين إلى الحالة الطبيعية الفطرية في كتاب «المتوحش النبيل» تأنيبًا موجهًا ضد فكرة التقدم العقلي، كل التقدم كان خطوات كثيرة في مظهرها نحو تحسين الفرد ولكنه خطوات عدة نحو ضعف الجنس البشري... والملكية الخاصة هي أساس كل إشكال انعدام المساواة، وهي أكثر المؤسسات جيمعًا مجافاة للطبيعية، وتقدم المجتمع المدني لم يحقق المساواة والعدل ولا الحرية لقد دمر الحرية الطبيعية بغير رجعة وأرسى قانون الملكية واللامساواة على طوال الزمان... واخضع الجنس البشري للعمل والعبودية والتعاسة، و ينتهي روسو في احدى مقالاته بهذا التضرع الساخر «يا الهي: خلصنا من التنوير وردنا إلى الجهل والبراءة والفقر»[٢].

وربما تعود تشاؤمية روسو إلى وضعه الشخصي وما كان يحس به من فقر وحرمان، إن في نقده نزوعًا يوتوبيًا ينطلق من نقد لما هو كائن وتصور ما ينبغي إن يكون، وما يميز روسو وأقرانه من الفلاسفة الرومانسيين الذين مدحوا ما هو قائم أو في طريقة إلى الولادة، هو كونهم قد فضحوا بلا هوادة الوجه البشع الذي يختفي خلف القشرة الذهبية للحضارة الرأسمالية الغربية الحديثة.

حلم روسو باسم الطبيعية الإنسانية الفطرية بالتاريخ الخالي من أشكال التنافس والتدافع والقتال، تاريخ البراءة والفطرة البشرية الصافية التي سبق أن حلم به أفلاطون في (أسطورة الكهف) والغزالي في المنقذ من الضلال، وابن طفيل في «حي بن يقظان»، وهذا ما عبر عنه بوضوح في كتابه «أميل» أو «المتوحش النبيل» وهو كتاب في التربية وتربيته سلبية قوامها «أن لا نعلم الطفل مبادئ الفضلية والحقيقة بالتقليد والتلقين، بل إن نحفظ قلبه من الرذيلة وعقله من الزلل، لأن تعليم الفضلية يكبت النبع الصافي للفطرة الطبيعية، والتربية السليمة تنبع من النمو الحر لطبيعة الطفل الخاصة وقواه الذاتية، العادة الوحيدة التي يجب أن يتاح للطفل اكتسابها هي إلا يقتبس أية عادة على الإطلاق»[٣].

(١) جان جاك روسو، اصل التفاوت بين الناس، ص٥٠.
(٢) آرثر هيرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، ص٨١.
(٣) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ص٢٣.

هكذا حلم روسو بالعودة إلى الفردوس المفقود، وقد وجد هذا النزوع الحميم في العودة إلى الطبيعة والحياة الريفية هوي في نفوس الرومانسيين الذين ثاروا على العواقب الاجتماعية والجمالية للرأسمالية الصناعية الناشئة، ودعوا إلى العودة إلى ما تخيلوا أنها الطرق التي كانت «أكثر طبيعية» للعيش والتفكير وفي مقدمة (ويليام وردزورث) لديوانه «أغنيات شعبية» عام ١٨٠٠ يفسر الشاعر اختياره موضوعات ريفية أساسا بنبرات تحاكي صوت روسو. «لقد اختيرت الحياة الريفية المتواضعة إذ تجد الانفعالات الجوهرية للقلب تربة أفضل تستطيع فيها أن تبلغ النضج وأن تخفف من القيد وأن تتكلم بلغة أوضح وأكثره روعةً... ففي هذا الوضع تندمج انفعالات الناس بأشكال الطبيعة الجميلة الدائمة»[١]. وبمثل ذلك يُعبر الشاعر (الكسندر بوب ١٦٨٨-١٧٤٤)[٢]* الذي يعد النموذج الكامل لأثر الحركة الرومانسية في الأدب ويعد الأديب الألماني (غوته) خير من عبر عن الرومانسية في الأدب الألماني، إذ يقدم لنا كما يقول ساتيانا: «ما هو أساس تدفق الحس وهتاف القلب وسحر الطبيعة والإحساس بقوة الحياة بقوله:

كل العلوم يا صديقي مقفرة جدباء وشجرة الحياة وحدها هي الخضراء»[٣]

ويرى براتراند رسل، أنه في أيام روسو سئم كثيرًا من الناس حياة المدن المزدحمة وصخبها والأمن الرتيب وأصبحوا يرغبون في الإثارة والانفعالات والحيوية والنشاط وكانت الحركة الرومانسية تحل المعايير الجمالية محل المعايير النفعية[٤] وقد بلغ هذا الميل أوجه في بعض المجادلات اللاعقلانية مثل مطلب (جون كيتس) في عام ١٨١٧م بحياة أحاسات بدلًا من حياة أفكار»[٥].

وإذا كانت تشاؤمية الحركة الرومانسية نابعة من الإحساس بطغيان المؤسسات العقلانية والتنظيم العسكري الرتيب فإن نتائج الثورة الفرنسية قد ضاعفتها، عندما قامت الثورة عام

(١) ديفيد هوكس، الأيديولوجيا، ص٤١.

(٢) سعيد ذلك الرجل الذي ترتبط رغبته وعنايته بأرض أهله وعشيرته يقنع بان يستنشق هواء وطنه على أرضه التي له ينظر رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج٢، ص٢١٠.

(٣) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ص٣٥، أيضًا أميل بريهة، تاريخ الفلسفة، القرن التاسع عشر، ترجمة جورج طرابيشي، ج٦، دار الطليعة، بيروت، ط١ ١٩٨٥، ص٢٦٩.

(٤) راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص١٠٦.

(٥) ديفيد هوكس، الأيديولوجيا، ص٤٢.

١٧٨٩م كان الشاعر الإنجليزي ويليام وورث في غاية البهجة إذ قال «كانت نعمة كبرى إن تكون على قيد الحياة في ذلك الفجر، أما إن تكون شابًا فإن تلك هي السعادة القصوى بعينها... ولكن بعد ذلك... يقول.... «يا لخيبة الآمال الضائعة»[١] لقد خيب عهد الإرهاب ودكتاتورية نابليون كل أمال الرومانسيين وكانت صدمت الرومانسيين الألمان شديدة، الشاعر الألماني شللر كتب بعد قصيدة «أنشودة الفرح» سنة ١٧٩٩ «إن هذا القرن ينتهي بالعواصف، ويبدأ الآن القرن الجديد بصرخة القتل»[٢].

وإذا كانت الحركة الرومانسية في جوهرها تهدف إلى تحرير الإنسان من أغلال العرف الاجتماعية والتقاليد الرأسمالية والأخلاق النفعية، فقد كان فقدان ثقة الرومانسية في المستقبل يواكبه حنين متزايد للماضي ما قبل الحديث، وكان لدى الرومانسيين إحساس جمالي قوى بالتاريخ وليس مصادفة إن يكون اشهر روائي النصف الأول من القرن التاسع عشر (السير ولترسكوت) قد ذاعت شهرته بسرعة بسبب روايته التاريخية (WAVERLEY) عام ١٨١٤[٣].

لقد كان اثر الرومانسية في تطور الفكر التاريخي الحديث والمعاصر كبيرًا من مختلف مناحي الحياة الفكرية، ومن مفهوم الأرض نشأ مفهوم الأمة مجتمعًا متجذرًا تاريخيًا وأقدم وأقوى من المجتمع التجاري، وكانت النتيجة هي الليبرالية الرومانسية وبكونها عقيدةً سياسية كانت الرومانسية مصدر إلهام لأشخاص مثل «روبسبير»[*] و«نابليون» وبكونها فلسفةً كانت ملهمة لنيتشه وشبنجلر وهيدجر وسارتر ويهمنا إن نشير هنا إلى أن الحركة التاريخية الرومانسية قد اكتسبت معاني ودلالات وتأويلات مختلفة في كل بلد أوروبي، ففي حين كانت

(١) آرثر هيرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، ص٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٣) جورج لوكاش، الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون عام ١٩٧٨، ص٢٨، قال بوشكين (لقد امتد تأثير والترسكوت في عصره إلى حقول الآداب كلها، فمدرسة المؤرخين الفرنسيين الجديدة نشأة بتأثير الروائي الايكومي، وقد دلهم على مناهل جديدة الجده كلها)، ينظر هنري ارفون، جورج لوكاتش، ترجمة عادل العوا، منشورات دار الثقافة، دمشق، ١٩٧٠، ص١٥٤.

(*) يرى توينبي، «إن ما يثير العجب إن يكون اشهر مريدي روسو هو روبسبير المعروف بأنه المسؤول الرئيس عن «الإرهاب الفرنسي» الذي اتخذ سبيله في إثناء مدة (١٧٩٣-١٧٩٤م) وكذلك يمكن النظر إلى الإرهاب النازي المعاصر الذي جعل من العنصر النوردى الوثني شيئًا مثاليًا»، توينبي، مختصر دراسة التاريخ ج٢، ص٤٤٢.

ألمانيا آنذاك واقفة وراء القافلة كان فلاسفتها أكثر وعيًا وحساسية لحقيقة التغير والتقدم الذي كان يزدهر لدى جيرانهم في فرنسا وانكلترا، فرأوا فيه «تقدمًا» مرغوبًا وعاشوا على صعيد الحلم ما كان هذان البلدان يعيشانه على صعيد الواقع لهذا وجدت فلسفة التاريخ ازدهارها الجديد على أيدي الألمان عند هيردر ولسنج وكانط وهيجل وماركس وشبنجلر... إلخ.

ويرى كولنجوود «أن هيردر هو أول فيلسوف تاريخ يحرز تقدمًا في الحركة الرومانسية»[١].

وتقوم فلسفة التاريخ عنده، على النظرة الكلية للكون والحياة والمجتمع، إذ تقوم نظريته العامة في الطبيعة على فكرة غائية على نحو صريح، فهو يرى إن كل مرحلة من مراحل الطبيعة هي تمهيد للمرحلة التي تليها والإنسان هو غاية الكون، وعد أن لكل شعب (روحًا) توحده وتميزه من غيره، وبهذا أكد الجوهر الذاتي لكل أمة، ويعد أول من جعل من النزعة الرومانسية فكرة قومية جرمانية[٢] هذه الفكرة التي تلقفها فيما بعد فيخته وهيجل وشبنجلر[٣].

ثالثا: الموقف من التاريخ وميلاد فلسفة المستقبل

وأنا أبحث في فلسفة المستقبل واجهت موقفان متناقضان كانا دافعا لازدهار الدراسات المستقبلية في الحضارة الغربية؛ الموقف الأول يتصل بالثقة بالتاريخ بوصفه تقدميا والموقف الثاني يتصل بفقدان الثقة بالتاريخ بوصفة بلا قيمة ولا أهمية.

أولًا: على صعيد الموقف الواثق بالتاريخ أخذت فكرة التقدم تنتشر وتشيع في نسيج الثقافة الأوروأمريكية عقيدة عامة وفلسفة شاملة منذ القرن السادس عشر الميلادي ومابعده حتى منتصف القرن العشرين إذ لم تكن فكرة التقدم مجرد أراء يرددها مفكرون وإنما كانت اقتناعًا عاما لدى أهل ذلك العصر. إذ كان لـ تحقيق الاستقلال الأمريكي عام ١٧٨٣ والنجاح في إقامة حكومة جديدة الأثر الكبير في تحويل المفهوم العقلي للتقدم إلى عقيدة راسخة في الوسط الثقافي الأمريكي إذ كتب «توم بين» «نحن الأمريكيين، نملك القوة والقدرة على أن

(١) كولنجوود، فكرة التاريخ، ص١٦٩.

(٢) هاشم الملاح وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، ص١٠٩.

(٣) جورج لوكاتش، تحطيم العقل، ج٣ فلسفة الحياة الالمانية الإمبريالية والنيوهيغلية، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت ط١، ١٩٨٢، ص٢٠-٤٠.

نبـدأ العالم من جديد، وأن العالم لم يشـهد موقفًا مماثلًا منذ أيـام نوح حتى الآن، ونحن نقف على عتبة ميلاد عالم جديد» وكان «توماس جيفرسون» يطلق على أمريكا اسم «إمبراطورية الحريـة» إذ كتب يقـول «إن قدرنا أن نكون حائلًا دون عودة الجهـل والبربرية و إن أوروبا القديمة سـوف تعتمد علينا ونحملها على كاهلنا وتعرج بجانبنا تحت وطأةش شـباك القساوسة والملوك، ترى ماذا سـنكون عندما تصبح القارة الجنوبية تحت سـيطرتنا وما هو الموقف الذي سـنكلفه كقوة حليفة للعقل والتقدم وسـند للحريـة في العالم»، وفي عـام ١٨٥٨ كتبت مجلة «هاربـرز منثـلى» «إن كل ما له علاقة بوضعنا وتاريخنا وتقدمنـا، يعين الولايات المتحدة أرضا للمستقبل» و يكتب (هنري بلوسل) أن أمريكا تمثل اعلى مرحلة في الحضارة والتقدم والتجديد، و يرى آرثر هيرمان إن فكرة التقدم الأمريكية كانت تنطوي بداهة على نظرة علمانية للتاريخ مناقضـة للنظرة المسـيحية اللاهوتية و إذا كانت فكـرة التقدم قد ظللت بأفقهـا العام الفضاء الثقـافي الاور أمريكي في القـرن الثامن عشر، فربما يعود ذلك إلى كونها تمثل حينذاك الشـكل المدرك الذي اتخذته مشاعر ودوافع وحاجات الطبقة البرجوازية الفتية التي كانت تعيش أوج فتوتها وشبابها، وقد كانت فكرة التقدم بما احتوت في ذاتها من قوة ديناميكية لتحريك الأفراد والأمم ودفعهم في اتجاه إنجاز الغايات والأهداف التاريخية.

ثانيا: فقدان الثقة بالتاريخ.

شـهد العالم المعـاصر منذ منتصف القـرن العشرين أحداثًا عاصفة ومتغيرات متسـارعة في مختلف الصعد الحضارية والثقافية والمدنية، متغيرات لم يشـهد لها التاريخ مثيلًا من حيث جدتهـا وسرعتها وأثرها وقوتها الصادمة للروح والعقـل معًا، إذ بدا الأمر وكأن التاريخ يترنح والأرض تميد بأهلها، والقيم تهتز والحضارة تضطرب، والفوضى الشاملة تجتاح كل شيء، وبازاء هذا المشـهد القيامي المجنون تحيرت أفضل العقول، وفقد العقل الإنسـاني بصيرته وقدرته النيرة في رؤية الأحداث وما ورائها، ومن ثم تفسيرها وتحليلها والكشف عن ثيماتها العميقة المتخفية في سـبيل فهمها وعقلنتها و إدراك معناها. ووسط هذا السـديم الحالك من الاضطراب العظيم والعمـى الشـامل، آخذ العلماء والمفكـرون والمؤرخون يبحثون عن تفسـير معقول لما يعتمل في لواقـع ويدور في عالم جن جنونـه وأصاب الناس جميعًا بالدهشـة والذهول، فهذا المؤرخ الإنجليزي المشـهور «جفري بارا كلاف» من جامعة اكسـفورد يكتب تحت تأثير الإحساس العميـق بالأزمة «إننا مهاجمون بإحسـاس من عدم الثقة بسـبب شـعورنا بأننـا نقف على عتبة

عـصر جديـد لا تزودنا فيه تجاربنا السـابقة بدليل أمين لسـلوك دروبه، وأن أحـد نتائج هذا الموقف الجديد هو أن التاريخ ذاته يفقد، إن لم يكن قد فقد سلطته التقليدية ولم يعد بمقدوره تزويدنا بخبرات سابقة في مواجهة المشكلات الجديدة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلًا منذ آدم حتى اليوم».

هذا الإحسـاس المتشائم بعدم جدوى التاريخ سرعان ما سرى كما تسري النار في الهشيم بين قطاعات واسـعة مـن الفئات المثقفة الأورأمريكية وهذا مـا افصح عنه المؤرخ البريطاني «ج. هـ. بلومب» في كتابه «حيرة المؤرخ» عام ١٩٦٤م، بقوله: «ليس للتاريخ معنى أو فاعلية أو رجاء، فقد اندثرت فكرة الرقي والتقدم الصاعد بين المشتغلين بالتاريخ، فـ ٩٠٪ منهم يرون أن العمـل الذي يمارسـونه لا معنى له عـلى الإطلاق» وقد بلغ هذا الموقف المتشـائم من التاريخ والمعرفـة التاريخية عنـد المؤرخ الأمريـكي «دافيد رونالد» مـن جامعة هارفـارد حد الرفض للتاريخ والتشـكيك بقيمتـه وأهميته في كتاب يحمل الاسـتفزاز والتحدي صـدر عام ١٩٧٧م بعنـوان (تاريخنـا بلا أهمية) أكد فيه عدم فائـدة التاريخ الحاضر والماضي والمسـتقبل وأعلن: أن التاريـخ يظهـر مقدار ضعفنا وأننـا لا نتعلم من اخطأ الماضي، وما اقـل تأثيرنا فيما ينزل بنا من أحداث وما أشد عجزنا في قبضة قوى طبيعية أساسية هي التي تشكل الوجود الإنساني».

ويمكن لنا تتبع حيرة الفكر المعاصر إزاء ما شـهده العالم ولا يزال يشـهده من اضطراب شـامل في ذلك السيل المتدفق من المحاولات التنظيرية التي ترغب في توصيف ونمذجة وعقلنة المشهد التاريخي الراهن في أطر مفهومية مجردة وكلية، إذ أخذ الفلاسفة والمفكرون منذ أواخر القرن العشرين يتسـابقون ويتنافسـون في صياغة وإبداع ونحـت المفهومة المعبرة أو الصورة الفكريـة التـي يمكن لهـا أن تعبر عن العـالم المعاش، وتمنـح الحقبة الجديدة اسـمها ومعناها. ومن تلك التوصيفات يمكن الإشـارة إلى اشهرها وهي: العولمة، ما بعد الحداثة، ما بعد القومية، ما بعد الحرب الباردة، ما بعد الأيديولوجيا، ما بعد الاستعمار، ما بعد البنيوية، ما بعد التنوير، ما بعد الشـيوعية، ما بعد المجتمع الصناعي، ما بعد التاريخ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، عـصر الليبرالية الجديدة، عـصر التفكيك، مجتمع الفرجة، أو الاسـتعراض، عصر الكمبيوتر، ثـورة المعلومات والاتصـالات، أو صدام الحضـارات، القرية الكونية، نهاية عـالم كنا نعرفه «مجتمع الاسـتهلاك، عصر الديمقراطية، عصر التقنية، عصر التنوع الثقافية، العهد الأمريكي، أو الأمركـة، عـصر الإرهـاب العالمـي، السـوق الحـرة، والوطن السـيبرنيتي، عـصر الفضاء،

والكوكبية وغير ذلك من التوصيفات الكثيرة في أبعادها المتنوعة. ومنها ما بعد فيروس كورونا كوفيد-١٩.

وهكذا جاء عنوان مؤتمر الرياض الفلسفي الدولي أمس؛ ادارك ما لا يتوقع؛ حدود العقل البشري. وغدا سيكون مؤتمر الفلسفة والمستقبل في جامعة القاهرة. وهكذا بات التفكير بالمستقبل اليوم هو الأفق الوحيد الممكن إذ إن استشراف المستقبل والبحث فيه لم يعد اليوم من باب الرجم بالغيب أو التنجيم أو التنبؤ أو التخمين والظن والشطح الصوفي، بل غدا اليوم ضرورة حيوية وجودية واستراتيجية للبقاء والعيش في عالم تعصف به الأحداث والمتغيرات بخطى سريعة الايقاع) فلا مستقبل لمن فقد موقده وضيع بوصلة اتجاهه (ويرى توفلر أن الأمم التي تجعل ماضيها هو مستقبلها تشبه ذلك الذي راح يبحث عن روح أجداده في رفات الرماد، فأيهما يحكم الآخر عندنا الماضي أم المستقبل؟! وبدون تحرير المستقبل من الماضي لا يمكن لنا أن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام بينما نتراجع خطوات كثيرة إلى الخلف، لقد أصبحنا اليوم نهرب إلى الماضي ونقرأ فيه مستقبلنا، فأضعنا الحاضر والماضي والمستقبل ولفظنا التاريخ في زوايا الهامش المنسي.

رابعا: أوفين توفلر وفلسفة المستقبل

ولد آلفين توفلر في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي في ولاية بنسلفانيا الأمريكية من أسرة عمالية بسيطة، وبعد أن أنهى تعليمه الأساسي والثانوي ذهب للاشتغال في أحد مصانع السيارات لمدة خمس سنوات كعامل مبتدى، ثم التحق بسلك التجنيد كما يقول: «وقد استفدت كما فعل كثير من المجندين السابقين من منحة أتاحت لي الذهاب إلى الجامعة».

وفي الإجابة عن سؤال مَن هو آلفين توفلر؟، يروي توفلر بلسانه أهم المحطات في حياته بقوله: «عندما كنت ما أزال في المدرسة كنت أريد أن أكتب، وكنت أهتم بالمشكلات الاجتماعية وبالتغيرات السياسية وحلمت بكتابة رواية عظيمة عن حياة العمال».

ومنذ أواخر الأربعينات يرتبط توفلر مع رفيقة عمره «هيدي توفلر» ليتقاسما تجربة الحياة العملية والفكرية، العمالية والسياسية، الثقافية والنظرية يقول: «جاءت معي هيدي التي كانت خطيبتي حينئذ وتقاسمنا هذه التجربة».

في أواخـر الأربعينيات يذهـب توفلر إلى الجنوب للنضال من أجـل قضية الحقوق المدنية ويشـارك في المظاهرات الشعبية هناك، ويكتشف الماركسية التي سحرته براديكاليتها القوية وتعاليمها الثورية الجذرية.

لكنه فيما بعد يقول: «تحت بزة الوقاد لم أكتشف لا «المتوحش الطيب» ولا «البروليتاري المجيد» لقد تعلمت في المصنع بقدر ما تعلمت في مدرجات الجامعة، وتأكدت بنفسي من حماقة وغطرسة مثقفي اليسار الذين يعطون لأنفسهم مهمة «إيقاظ الوعي الطبقي» عند العمال».

ويروي توفلر، كيف تنقل بين عدد من المهن والأعمال الصناعية والميكانيكية من منظف عوادم السـيارات إلى ميكانيكي للسـيارات إلى لحّام وكيف أنه كان يتعلـم في تلك الأثناء اللغة الإنجليزيـة والكتابـة الصحافية، إذ بدأ منذ الخمسـينيات يكتب في الصحافـة العمالية كتب مقالات لحسـاب مجلات مختلفة بأجر ثم عمل مراسـلًا للصحافة في واشنطن منذ نهاية ١٩٥٠م، إذ غطى لمدة ثلاثة أعوام أخبار البيت الأبيض، لحسـاب صحيفة يومية في «بنسـلفانيا»وكتب في مجلة كريسـتيان سـاينس مونيتور وفي الواشـنطن سـتار، وفي كثير من المجلات والصحف الخارجية، وفي عام ١٩٦١م أنجز دراسـة حول النتائج البعيدة للناظمة آلية والأتمتة على صعيد المنظـمات الإداريـة للمشروعات، وهذا ما منحـه الفرصة للطواف بإرجـاء الولايات المتحدة الأمريكية ومقابلة الباحثين الذين كانوا قد أرسـوا أسـس الإنجـازات الحالية في مجال الذكاء الاصطناعي.

وفي عـام ١٩٦٤ ينـشر توفلر أول كتاب له بعنـوان «مسـتهلكو الثقافة»وهو تحليل للفن في أمريـكا مـن وجهـة نظـر اقتصاديـة ونقـد للنخبويـة الثقافية. ومنـذ ذلك الحـين توالت الإصـدارات الفكريـة لتوفلر، وذاع صيته في معظم الدوائر الثقافيـة والأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية لاسيما بعد نشر كتابه المثير «صدمة المستقبل»عام ١٩٧٠. ثم عمل في المجلة السـنوية للأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسـية والاجتماعية، وشـغل كرسي علم الاجتماع المستقبلي في «المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي» ثم أصبح أستاذا في جامعة (كورنويل).

تجـدر الإشـارة إلى أن كتـاب «صدمـة المسـتقبل» يعد منعطفا حاسـما في حيـاة توفلر، إذ يعـترف بأنـه هو الذي غير مجرى حياته، بقول «لقد غيرها بأشـكال عديـدة فالوابل الرائع من ردود الفعل التي أثارها الكتاب قد كان له أثرٌ حاسـم على حياته... كان ثمة شـلال حقيقي

من الاتصال من زوايا البلاد الأربع بل ومن زوايا العالم الأربع فقد اتصل بي أناس في الساعة الثانية صباحًا ليخبروني بأنهم انتهوا لتوهم من قراءته وأنهم يحبون أن يروني...» وبغض النظر عن حقيقة ما يقوله توفلر عن اثر كتابه وما يحتمل من مبالغات، فقد كان لهذا الكتاب أثر الصدمة القوية في أذهان ونفوس معظم الذين قراءوه. إذ حقق نجاحًا باهرًا في أمريكا وخارجها وكان أكثر الكتب رواجًا في فرنسا وألمانيا الغربية واليابان وفي عشرات من البلدان الأخرى، وبسبب هذا الكتاب فتحت الأبواب لتوفلر وزوجته لمقابلة شخصيات عديدة في أمم كثيرة، رؤساء دول وحملة جوائز نوبل وعلماء ومن كل الأنواع، إذ التقى بالرئيس الروماني «شاوشيسكو» والرئيس الكندي «ترودو» و«انديرا غاندي» رئيس وزراء الهند ورئيس وزراء اليابان سوزوكي والقيادة الصينية والروسية الاشتراكية آنذاك).

وقد تم تمثيل كتاب «صدمة المستقبل» في السينما وعقدت عشرات الندوات والمؤتمرات لمناقشته في بلدان كثيرة، ثم أصدر بعد ذلك الكتب الآتية: كتاب (خرائط المستقبل) ١٩٧٥م، وكتاب (الموجة الثالثة) ١٩٨٠م، وكتاب (تحوُّل السُّلطة) (المعرفة والثروة والعنف) في بداية القرن الواحد والعشرين) ١٩٨٥م، وكتاب «بناء حضارة جديدة» ١٩٩٤م، وغير ذلك من الكتب والمقالات والدراسات الأخرى.

تجدر الإشارة إلى أن عقيدة التاريخ لم تكن راسخة عند الأمريكيين، كما هي عليه عند الشعوب الأخرى، وذلك بحكم حداثة الولايات المتحدة وعمر العالم الجديد، وربما كانت الروح الأمريكية عموما تتميز بالنزعة المستقبلية، أكثر منها التاريخية، إذ أن الفلسفة البراجماتية التي تشكل الأساس الثقافي للمجتمع الأمريكي - تقوم على أساس النظر إلى المستقبل في كل التصورات، فبدلا من الاهتمام بالماضي والتاريخ والبحث عن أصول الأشياء والظواهر والأفكار والمؤسسات، انصرفت البرجماتية للبحث في النتائج العملية والمفيدة للحياة والتقدم فهي لا تسأل كيف نشأت المعرفة أو ما هي الحقيقة بقدر ما تسأل عن النتائج التي تترتب على هذه الفكرة أو تلك في عالم الخبرة الواقعية.

في هذه البيئة الثقافية المتحررة من آثار التاريخ وأثقاله والمتجهة بنظرها إلى المستقبل واحتمالاته عاش وفكر توفلر، وكان مشدود إلى المستقبل أكثر من الماضي، وفي جوابه عن سؤال هل أنت مستقبلي؟ أجاب توفلر: «لستُ أرفض كلمة مستقبلي لأنها لا تحمل أي معنى شائن... والنظر إلى المستقبل هو وسيلة لتحسين القرارات التي يجب اتخاذها في الحاضر..

فـما من أحد في رأيي يسـتطيع أن يسـتمر في العيش عـشر دقائق دون أن يخصـص جزءًا مُهمًّا من نشـاطه العقلي لإعداد فرضيات لها صلة بالمستقبل... وفي مرحلة من الاضطرابات الثورية كالتي نعيشها، فإن الماضي لم يعد دليلًا موثوقا عندما يتعلق الأمر بقرارات مباشرة وبإمكانيات يخبئها المسـتقبل، بل لا بُد من امتلاك فكرة واضحة عن المسـتقبل كضرورة جوهرية من أجل البقـاء... ولـكل ثقافة في نظري موقف خاص تجاه الزمن فمنها ما هو مسـتقطب حول الماضي إذ حيث يرسـخون في أذهان الأطفال الفكرة القائلة بـأن الحكمة والحقيقة تكمن في الماضي.. ومثل هذه الثقافة تبقى قرونا وآلاف من السنين حبيسة العش البيئي نفسه».

عـلى كل حال لقد كان لكلمة « المسـتقبلية» في أوروبا منـذ بداية القرن العشرين معاني ودلالات متنوعة، لكن المعنى الذي يهمنا بالنسبة لأغراض هذا البحث هو الآتي:

المستقبلية Futurism حركة فكرية ثقافية ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وكان الألماني «أوسـيب فليشـتهايم»، أول من نادى بضرورة توقع المسـتقبل وتعلمه في المدارس، وفي سنوات السـتينات اجتمعـت زمرة من المثقفـين الأوروأمركيين، وكـــان توفلر من بينهم، شـنوا حملة مـن أجل الاهتـمام بصورة أكثر منهجية بمضامين التغير على المـدى الطويل، ثم ظهرت معاهد دراسات المسـتقبل ومجلات المسـتقبل، وعلوم المسـتقبل، وكان للفرنسي (برترانددي جوفنيل) أكبر الأثر في تأسيس نادي رواد المستقبل Futurism الذي يقوم على إدارته اليوم ولده (هوغ). وفي هذا السـياق يمكن النظر إلى كثير من الكتابات الفكرية الأوروبية الأمريكية المعاصرة، إذ تعد كتابات مستقبلية مثل كتاب «دانييل بيل» «المجتمع ما بعد الصناعي» أو كتاب «جان فرانسـو ليوتار» (الوضع ما بعـد الحداثة، تقرير عن المعرفة) أو كتاب «الفضاء السـيبرنيتي» لعالم المسـتقبليات المشـهور «جون بري بارلـو» John Perry Parlo الذي يسـتهله بالخطاب الآتي:

«يـا حكومات العالم المصنع، أيهـا العمالقة المتُعبون المصنوعون مـن اللحم والفولاذ لقد جئتكم من الفضاء السـيبرنيتي المأوى الجديد للفكر، نحن لا نرحب بكم عندنا. لسـتم أسيادًا في هذا الفضاء الذي نجتمع فيه، إن مفاهيمكم القانونية عن الملكية، والتعبير والهوية، والحركة والسـياق لا تنطبـق علينا، إنها مؤسسـة على المـادة. ولا مادة هنـا. نحن بصدد إنشـاء حضارة للروح في الفضاء الجديد ستكون أكثر إنسانية وأكثر عدلًا من العالم الذي شيَّدته حكوماتهم وفي هذا المنظور، من البديهي أن الدولة لن تعود مصدرًا للسُّلطة ولا لشرعيتها، ولا للهوية».

هكذا أخذ التفكير المنهجي بالمستقبل يشغل الأفق الثقافي الأوروبي والأمريكي والصيني والياباني وكل الشعوب الناهضة من سباتها التاريخي والمتصدرة موكب التاريخ العالمي المعاصر.

إن السؤال عن المستقبل لم يعد اليوم من باب الرجم بالغيب أو التنجيم أو التنبؤ أو التخمين والظن والشطح الصوفي، بل غدا اليوم ضرورة حيوية وجودية واستراتيجية للبقاء والعيش في عالم تعصف به الأحداث والمتغيرات بخطى متسارعة، (فلا مستقبل لمن فقد موقده وضيع بوصلة اتجاهه) ويرى توفلر أن الأمم التي تجعل ماضيها هو مستقبلها تشبة ذلك الذي راح يبحث عن روح أجداده في رفات الرماد، فأيهما يحكم الآخر عندنا الماضي أم المستقبل؟!، وبدون تحرير المستقبل من الماضي والماضي من المستقبل لا يمكن لنا أن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام بينما نتراجع خطوات كثيرة إلى الخلف، لقد أصبحنا اليوم نهرب إلى الماضي ونقرأ فيه مستقبلنا، فأضعنا الحاضر والماضي والمستقبل، ولفظنا التاريخ في زوايا الهامش المنسي.

على مدى نصف قرن من العمل والنشاط السياسي والتأمل الفكري والكتابة يحاول توفلر تفسير الأحداث والمتغيرات التي يشهدها العالم بما يجعلها قابلة للفهم والعقلنة، ويحدد فترة دراسته في مدة بدأت في منتصف الخمسينات، لتنتهي تقريبًا بعد خمس وسبعين سنة، أي في العام ٢٠٢٥م، كما يقول، وهذا زمن يمكن أن يُعرف بأنه نقطة من أكبر نقاط الفصل في التاريخ، أو فترة يأتي بعدها من خلال سلسلة من الصراعات التي ستهز العالم، حضارة غير الحضارة الصناعية التي سادت العالم، خلال قرون. وهي حضارة جديدة مختلفة بعمق عن الأولى.

ويرى توفلر أن التغيرات السريعة التي نلاحظها في عالم اليوم ليست بهذه الدرجة من الفوضوية والعرضية، التي يهيئوننا لتصديقها، بل أن وراء الأحداث المعروضة بعناوين كبيرة، جملة من البنى ليست ملحوظة فحسب، بل هناك قوى يمكن تحديدها وهي التي تتحكم في تلك البنى وتهبها صورتها ومتى استطعنا أن نفهمها، يكون في وسعنا أن نتبنى تجاهها استراتيجية كلية. بدلًا من أن نتصدى لها كأجزاء متفرقة وبمجرد الصدفة.

وكتاب (صدمة المستقبل) ينظر في صيرورة التغير بالطريقة الذي يؤثر فيها هذا التغير في حياة الناس والمنظمات والمؤسسات، أمَّا كتاب (الموجه الثالثة) فإنه ينظر إلى الاتجاهات التي تمضي إليها هذه التغيرات الحالية، أمَّا كتاب (تحوُّل السُّلطة) فإنه يعالج قدرتنا السيطرة

على التغيرات التي ستأتي والمشكلة هي أن نعرف من هو الذي يقودها، وكيف يتصرف إزاءها، أما كتاب «بناء حضارة جديدة» فيبسط فيه توفلر نظريته في الموجة الثالثة ويحدد معالم الحضارة الجديدة التي أخذت تبزغ من أحشاء حضارة الموجة الثانية، الحضارة الصناعية الغاربة، أما في كتاب (خرائط المستقبل) فيعرض توف---لر آخر صورة لمفاهيمه ويتحدث عن سيرته الذاتية ويدافع عن طروحاته ضد منتقديه،

فالتغير يجري اليوم داخل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بسرعة وبلا توقف لدرجة أن ما كان يعد حقائق بالأمس أصبح اليوم مجرد مخلفات وأصبح عسيرا على أكثر الأفراد في هذه المجتمعات ذكاءا ومهارة أن يلاحقوا طوفان المعرفة الجديدة حتى في أضيق المجالات كل ذلك نتيجة طبيعية لما يعرف بـ وثبة الزمن التي جعلت من علاقة الإنسان مع الأشياء اقصر مما يتصور احد فثقافة التخلص من الأشياء هي استجابة طبيعية لهذه الضغوط ويتوقع توفلر انتشارا أوسع لهذه الثقافة أي اختزالا أكثر لعلاقة الإنسان بالأشياء مع ذلك يشدد «بان أولى احتياجاتنا وأشدها إلحاحا قبل بناء المستقبل الإنساني الجديد هي تهدئة التسارع الذي يعرض الملايين لتهديد صدمة المستقبل وليس ثمة طريق سهل لمعالجة هذا النمو السرطاني ولا يوجد دواء سحري للشفاء منه لذلك اقترح المؤلف جملة مسكنات للفرد الذي يعاني وطأة التغيير وإجراءات وقائية للمجتمع واستراتيجية للتحكم في التغيير ولا بد من إيجاد طرق أخرى ولكن هدفه الأول التشخيص الضروري لمقدماته بهدف وعي المشكلة والاستعداد لها لتوجيه تطور التغيير وضبطه والوصول به إلى الغد البعيد بجعله غدا إنسانيا»[1].

عصر الموجة الثالثة:

تختلف وجهة نظر توفلر بشأن أزمة النظام العالمي الجديد، وبشأن طبيعة الصراع الجوهري فيه، إذ هو على العكس من كثير من الكتاب الأمريكيين المتشائمين أمثال: «جون كينيت جالبريت» في كتابه «أزمة الديمقراطية الأمريكية» أو ديفيد هـ. دونالد المبشر بـ «جدب الحقبة الجديدة» أو كتاب «يول كيندي» «قيام وسقوط القوى الكبرى» ١٩٨٧م وكثير من عناوين الكتب الجديدة - «الفجر الكاذب»، و«فقدان الأمل»، و«الجمهورية المجمدة»، و«بيع أمريكا» و«إفلاس أمريكا» و«الحلم الأمريكي المهدد». وكتاب آرثر

(١) ألفين توفلر: صدمة المستقبل، مصدر سابق ص٥١٤.

هيرمان (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) الذي قال فيه: «إننا نعيش حقبة أصبح التشاؤم فيها هو القاعدة فقد ظهرت سلسلة طويلة من كتب الأزمات تعدنا لاستقبال القرن الواحد والعشرين كمرحلة من التشوش العميق وعدم الثقة يبدو فيها الغرب - الذي يعني إلى حد كبير الولايات المتحدة، عاجزًا عن التأثير على ما ينتج عنه بأي شكل من الأشكال».

إن تفاؤل توفلر القوي بالمستقبل هو تفاؤل من نمط مختلف عن تفاؤل فرانسيس فوكوي كو ياما في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» كما أنه يختلف عن هنتجتون في تشخيص «صدام الحضارات».

إن توفلر يقر بوجود أزمة عميقة في قلب المجتمع الغربي لكنه لا يرى في الأزمة دلالة انهيار أو أفول الغرب بل بشارة ميلاد جديد لحضارة جديدة أخذت تبزغ لتؤها من هشيم الحضارة الصناعية الغاربة إذ يكتب في مقدمة كتابه (بناء حضارة جديدة) البيان الآتي: «تواجه أمريكا (وهي رمز الغرب) تجمع أزمات لم يسبق لها مثيل منذ أيامها الأولى: نظامها الأسري في أزمة وكذلك نظام الرعاية الصحية ونظامها القيمي والمدني، أما نظامها السياسي فهو أشدها تأزمًا. وهو الذي فقد - من كافة الوجوه العملية - ثقة الشعب به. والسؤال هو: لماذا أصيبت أمريكا بهذه الأزمات في وقت واحد، كما لم يحدث في تاريخنا؟ هل هذه دلائل على اضمحلال نهائي لأمريكا؟ هل نحن في نهاية التاريخ؟ ويجيب توفلر على تساؤلاته بالقول «إن أزمات أمريكا ليست نابعة من إخفاقها، و إنما هي نابعة من نجاحاتها المبكرة. وأحرى بنا أن نقول: إننا لسنا في نهاية التاريخ، و إنما نحن نشهد نهاية (ما قبل التاريخ)».

هكذا نكون مع توفلر مع التاريخ الذي لم ينتهِ والتاريخ الذي لم يبدأ. ويرى توفلر أن ذلك الاضطراب الشامل الذي يعم الحياة الراهنة وما يخلفه من إحساس بالارتباك والخوف وفقدان الأمل والاتجاه يمكن أن يكون مصدره المباشر ذلك الصراع في داخلنا وفي داخل مؤسساتنا السياسية، الصراع بين حضارة الموجة الثانية المحتضرة وحضارة الموجة الثالثة البازغة، القادمة بهديرها لتأخذ مكان سابقتها. ويذهب توفلر إلى أن الناس بدأوا متأخرين في إدراك أن الحضارة الصناعية تقترب من نهايتها و إذ تقترب من النهاية فإنها تجلب معها مزيدًا من الحروب، و إن تكن حروبًا من نوع جديد.

وفي نقده لطروحات هنتجتون وبول كنيدي وفوكو ياما، يرى توفلر أن الصراع الأساسي

الـذي نواجهـه ليـس بين الإسـلام والغـرب، أو «الآخرون ضـد الغرب» كما أعلـن كنيدي، ولا نحـن في نهايـة التاريخ، بل نواجه انقسـامًا للعـالم على ثلاث حضارات مختلفـة ومتمايزة، والصـدام بينها وارد، ولا يمكن رسـم حدودها وخرائطها باسـتخدام المفهومـات والتعريفات التقليدية.

عـلى هذا النحو الاحتفالي يبشر توفلر بقدوم الحضـارة الجديدة، (حضارة الموجة الثالثة)، الذي يرى تباشيرها تلوح في الأفق في مظاهر كثيرة رصدها في كتبه (تحول السلطة) و(وخرائط المسـتقبل) (وبنـاء حضارة جديدة) أمَّا بدايـة ميلاد الموجة الحضارية الثالثـة فيحددها توفلر في عـام ١٩٥٥م، الذي يعدُّه نقطة من أكبر نقاط الفصل في التاريخ، إذ شـهد لأول مرة زيادة عـدد العاملين ذوي الياقات البيضـاء وأولئك الذين يعملون في قطاع الخدمات على عدد العمال ذوي الياقات الزرقاء. وهذا هو نفس العقد الذي شهد انتشار استخدام الكومبيوتر، والطيران التجـاري النفاث، وحبوب منع الحمل.. وغيرها، من المسـتجدات بعيدة الأثر. وهذا بالتحديد هو العقد الذي بدأت فيه الموجه الثالثة تسـتجمع قوتهـا في الولايات المتحدة، ومنذ ذلك الحين بدأت تصل في أوقات متقاربة إلى غالبية البلاد الصناعية الأخرى واليوم يصيب الدوار كل بلاد التكنولوجيا المتطورة بسـبب التصادم بين الموجة الثالثة من جانب، واقتصاديات ومؤسسـات الموجـة الثانية التي أصبحت جامـدة وانتهى زمانها من جانب آخر. إن هـذا الفهم هو مفتاح السر الذي يعطي معنى لكثير من الصراعات الاجتماعية والسياسية من حولنا.

هكـذا يعلن توفلر بيان البشـارة تحت عنـوان (الكفاح الأكبر) فيقـول: «تنبثق حضارة جديدة في حياتنا، وفي كل مكان يحاول رجال فاقدو البصر والبصيرة أن يوقفوا بزوغها، تجيئنا هذه الحضارة الجديدة بأساليب عائلية جديدة، وأساليب مختلفة لمزاولة العمل، والحب والحياة، كـما تجيئنـا باقتصاديات جديدة، وصراعات سياسـية جديـدة، وفوق كل ذلـك: تجيئنا بوعي مختلـف تواجه البشرية قفـزة هائلة إلى الأمام، تواجه أعمق فوران اجتماعي، واشـمل عملية إعـادة بناء في التاريخ. ونحن اليـوم مندمجون في بناء حضارة جديدة متميـزة بدءًا من البداية، وإن كنا غير واعين تمامًا لهذه الحقيقة وهذا ما نعنيه بـ (الموجة الثالثة)».

عـلى هـذا النحو الخطـابي الاحتفالي يقـرأ توفلر أزمة العـالم المعاصر، إذ يـرى في الأزمة الماحقـة التي تجتاح العالم بشـائر ميـلاد جديد لحضارة جديدة تحمل العـالم إلى العصر القادم السـعيد!، ومن الطريف أن نشـير إلى أن تلك النبرة المتغطرسة في تبشـير توفلر بالعالم الجديد

تذكرنا بخطاب مماثل لكاتب أمريكي من القرن الثامن عشر الميلادي هو (توم بين) الذي كتب على أثر تحقيق الاستقلال الأمريكي عام ١٧٨٣م يقول: «نحن الأمريكيين نملك القوة والقدرة على أن نبدأ العالم من جديد، و إن العالم لم يشهد موقفًا مماثلًا منذ أيام نوح حتى الآن، ونحن نقف على عتبة ميلاد عالم جديد».

وفي عام ١٨٥٨ كتبت مجلة (هاربرز منثلي الأمريكية): «إن كل ما له علاقة بوضعنا وتاريخنا وتقدمنا، يعين الولايات المتحدة أرضا للمستقبل». و إنها من مفارقات القدر أن يعيد توقلر بعد قرنين من الزمن ترديد هذه الأنشودة الصاخبة بقوله: «إن أمريكا هي البلد الذي عادة ما يأتيه المستقبل قبل غيره و إذ نحن نعاني من انهيار مؤسساتنا القديمة، فإننا أيضًا رواد حضارة جديدة».

و إذا كان كتاب «هنتجتون» «صدام الحضارات» قد آثار موجات عاتية من ردود الأفعال الناقدة والرافضة والمستنكرة، فإن توفلر في معظم كتبه هو أخطر بكثير من هنتجتون في تبرير وشرعنة الصدام الحضاري الراهن. إذ يرى أن العالم اليوم يصطف اصطفافًا حضاريًا مختلفًا في ثلاثة أقسام متناقضة ومتنافسة في ثلاث موجات حضارية متمايزة.

الموجة الحضارية الأولى: التي كانت ولا تزال مرتبطة ارتباطًا لا ينفصم بالأرض. وأياً كانت الأشكال المحلية التي تتخذها، أو اللغات التي تتكلمها شعوبها، أو الديانات والمعتقدات التي تؤمن بها، فإنها نتاج الثورة الزراعية. وحتى أيامنا هذه، وما زالت أقوام كثيرة تخربش أديم الأرض بحثًا عن الرزق، كما كان آباؤهم وأجدادهم منذ قرون.

والموجة الصناعية الثانية: التي تضم كل الشعوب والدول التي لا تزال تتدافع وتتزاحم لتبني مصانع صلب وسيارات ونسيج ومواد غذائية، وسكك حديدية، أي كل الدول التي تحتاج إلى التصنيع بغض النظر عن اختلاف قومياتها ولغاتها ودياناتها وثقافاتها.

والموجة الثالثة: تضم مجتمعات ودول التقنية العالية مثل أمريكا واليابان وأوروبا.. ثلاث حضارات متصارعة، الأولى التي لا تزال يرمز إليها بالفأس، والثانية بالمصنع والثالثة بالكمبيوتر.

وفي هذا العالم المنقسم إلى ثلاث موجات حضارية يحدد توفلر وظيفة كل حضارة في العالم الجديد. إذ يرى أن قطاع الموجة الأولى يقدم الموارد الزراعية والمنجمية وكل المواد

الخـام، ويقدم قطاع الموجـة الثانية العمالة الرخيصـة والإنتاج الجمعي والثقيـل. بينما يصعد قطاع الموجة الثالثة الذي يتوسع بسرعة - ليحقق السيادة المؤسسية على الأساليب الجديدة التي يخلق بها المعرفة ويسـتثمرها. إذ تقوم أمم الموجة الثالثة ببيع المعلومات والإعلام والمبتكرات، والإدارة، والثقافـة الرفيعة والفنون الشـعبية، والتكنولوجيا المتقدمة، والسـوفت وير (برامج العقل الإلكتروني erawftoS)، والتعليم، والتدريب المهني، والرعاية الطبية، والخدمات المالية وغيرها للعالم. ومن بين تلك الخدمات الأخرى يمكن أن تقدم أيضًا الحماية العسـكرية القائمة على امتلاكها لقوات عسكرية متفوقة تنتمي إلى الموجة الثالثة.

(وهذه في الواقع، هي التي قدمتها دول التكنولوجيا المتقدمة إلى الكويت والمملكة العربية السـعودية في حرب الخليج، وسـوف نلاحظ فيما بعد بعض أوجه الشـبه بـين توفلر ومنظري ما بعد الحداثة أمثال ليوتار في كتابه «الوضع ما بعد الحداثة»).

خصائص حضارة الموجـة الثالثة: يرصد توفلر مظاهر وتجليات الحضارة الجديدة في جملة من الخصائص الأساسية يمكن الإشارة إلى أهمها وأكثرها جوهرية في النقاط الآتية:

أولًا: المعرفة:

يُعـرّف توفلر المعرفة تعريفًا عامًّا، بُعدها يشـتمل على البيانـات، والمعلومات، والإعلام، والصـور، والرموز، والثقافـة، والأيديولوجية، والقيم، وهي المـورد المركزي لاقتصاد الموجة الثالثة. والمعرفة بهذا المعنى الواسـع هي «البديل الجوهري عن القوة الطبيعية الممثلة في الأرض التي سـادت في الحضارة الزراعية، وعن القوة الصناعية الممثلة في المصنع التي سـادت حضارة الموجة الثانية. إذ يرى توفلر أن كل الأنظمة الاقتصادية اليوم تقوم على أسـاس قاعدة معرفية (معلومات، بيانات، حسـابات أرقام... إلخ) وتعتمـد المشروعات المعاصرة جميعها على الوجود المسبق لهذا المورد المبنى مجتمعيًا».

وإذا ما أدركنا أنه يستحيل أن يدور دولاب عمل إذا لم تكن هناك لغة، وثقافة، وبيانات، ومعلومـات، ومهارات وخبرة مدربة وذكية، فإن الحقيقـة الأعمق هي أنه من بين جميع الموارد اللازمة لخلق الثروة، تتميز المعرفة بأنها متعددة الجوانب والاستعمالات أكثر من أي شيء آخر. لقد تحققت نبوءة فرنسيس بيكون (بأن المعرفة هي القوة أو السُّلطة) وإذا كانت قوى السلطة في الماضي تتمثل في العنف والمال والمعرفة، هذه المصادر الثلاثة للسُّـلطة والسـطوة والسيطرة،

ظلت على مدى التاريخ الإنساني الطويل تحتل المكانة الأرفع بين إمكانات أخرى لا متناهية العدد، واتخذت صورًا شتى في لعبة السُّلطة، وكما كانت السينما والتمثيل الغربي عمومًا تتمحور حول هذا اليالوث الرمزي «العنف والمال والمعرفة» وكذا يمكن التعرف على تاريخ القوة في الشرق في السيف والمال والقلم، ففي الأسطورة اليابانية تذكر الأشياء الثلاثة المقدسة المقدمة إلى آلهة الشمس الكبرى بالسيف والجوهرة والمرآة، التي لا تزال إلى يومنا هذا رموز السلطة الإمبراطورية

وبعد أن يورد توفلر كثيرًا من الشواهد التاريخية بشأن القوى التي استخدمت في الماضي كمصدر جوهري للسلطة ويحلل ويفسر خصائص كل رمز على حده ينتهي إلى أن السلطة ذات الجودة العالية هي حصيلة استخدام المعرفة.. إذ أن المعرفة هي أعظم وسائل السلطة لأنها الأكثر قدرة على التلاؤم، والإسراع إلى رفع قيمة الدولار، وهي تصلح للعقاب كما تصلح للمكافأة، وتصلح للإقناع، كما تصلح لتطوير النفوس. وفي وسعها أن تجعل من العدو صديقًا وحليفًا، ثم إن المعرفة عامل مضاعف للثروة وللقوة.

حتى زمن قريب، كانت القوة العسكرية مجرد امتداد لقوة القبضة، قبضة اليد، أمَّا اليوم فإنها كلها تقريبًا في يد «الذكاء المختزن»، وما الطائرة المقاتلة إلّا حاسوب طائر وحتى الأسلحة» الخرساء هي نفسها إنما يتم إنتاجها بفضل حواسيب وعناصرها إلكترونية مؤنقة إلى أبعد مدى. لقد حدد البتاجون الأمريكي مشروع تصور منظومة من الأسلحة، قادرة على القيام «بمليون استنتاج منطقي في الثانية» وينتهي إلى تأكيد أن الهيمنة على المعرفة، سيكون العنصر الحاسم في التنازع على القوة، على المستوى العالمي، ذلك التنازع الذي سيقوم عما قريب داخل كل المؤسسات الإنسانية.

« كان نابليون يقول شيئان يحيرانني؛ هما صراع السيف والعقل، فعلى المدى الطويل سينتصر العقل على السيف. في الواقع أن توفلر لم يكن هو صاحب ذلك الاكتشاف الرائع لوضع المعرفة في العالم الراهن، بل سبقه إلى ذلك الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار في كتابه (الوضع ما بعد الحداثة تقرير عن المعرفة) إذ يُعَد أول من بحث هذه المسألة وشخَّصها وحللها تحليلًا ضافيًا من وجهة نظر منهجية فلسفية ما بعد حداثية، إذ ذهب إلى أن وضع المعرفة قد تغير منذ دخول المجتمعات الصناعية عصر ما بعد الصناعة وما بعد الحداثة منذ نهاية الخمسينات «ومن السهل ملاحظة أن توفلر قد نقل فكرة ليوتار نقلًا حرفيًا فكرة»

أن المعرفة ستظل تمثل رهانًا رئيسًا في المنافسة العالمية على السلطة فمن المتصور أن الدول القومية ستحارب بعضها يومًا من أجل السيطرة على المعلومات، مثلما تقاتلت في الماضي من أجل السيطرة على الأرض وبعدها من أجل التحكم في الوصول إلى واستغلال المواد الخام وقوة العمل الرخيصة «ويضيف ليوتار»: «لقد تم فتح مجال جديد أمام الاستراتيجيات الصناعية والتجارية من جهة والاستراتيجيات السياسية والعسكرية من جهة ثانية».

وفي تحليله لأنماط المعرفة المتمايزة حدد ليوتار ثلاثة أنماط للمعرفة الإنسانية في ثلاث مراحل تاريخية وبدا وكأنه يعيد صياغة قانون المراحل الثلاث عند عالم الاجتماع الفرنسي اوغست كونت إذ أشار فرانسو ليوتار إلى أن هناك ثلاثة أنماط من المعرفة هي:

- **نمط المعرفة الحكائية** التي تعود إلى المجتمع القبلي البدائي، وربما الزراعي الرعوي وهي معرفة سحرية أسطورية خرافية.
- **نمط المعرفة «الميتا - حكائية»** - أي ما بعد الحكاية، وربما قصد بها المعرفة الفلسفية التي تعود إلى المجتمع الحديث إذ تسود فيه ما يسمى بالحكايات الكبرى «العقل - والقومية - والتقدم» وهي المنظومات الفلسفية المتنافيزيقية الشمولية التي شهدها العصر الحديث عند كانت وهيجل وماركس.
- **نمط المعرفة العلمية:** التي تميز المجتمع ما بعد الحداثي الراهن إذ تتحول المعرفة إلى سلطة عليا تختفي معها كل السلطات الأخرى، المشروعية المرجعية والغائية والتقدم والتنوير، إذ «تبدو نوعًا من ألعاب اللغة المستندة على قواعد محددة فورية تنبع من طبيعة اللعبة ذاتها وتمنحها عقلانيتها وشرعيتها» هكذا نرى أن الإحساس المتزايد بسطوة التقدم المعرفي العلمي النظري والتطبيقي وما أفضى إليه ذلك التقدم من نتائج مذهلة على صعيد التفوق التقني وثورة المعلومات والاتصالات والإنترنت كان إحساسًا عامًا بين الشرائح المثقفة الأوروأمريكية.

إذ يتفق الجميع في المبدأ على أن المعرفة أصبحت على نطاق واسع القوة الرئيسية للإنتاج والثروة والتوزيع والمنافسة، ويختلفون في تشخيص هذه الظاهرة في نتائجها القريبة والبعيدة وابعادها المختلفة، وهذا ما يراه الدكتور توفيق مجاهد في أطروحته «التحولات الفكري للعولمة» من اشتراك مجموعة من النظريات والنماذج الفكرية (نظرية ما بعد الصناعة

أو «مجتمع المعرفة» عند دانيال بيل»، و«تصورات توفلر حول المجتمع عالي التصنيع أو مجتمع المعلومات» وغيرها من التصورات الأخرى، التي تلتقي جميعها في أنها تعتبر التقدم العلمي والتقني المحور الأهم والمحدد لاتجاه تطور البشرية.ما يهمنا من هذه الاستشهادات المقارنة هو التحقق من مشروعية دعوى توفلر وخطورتها، والكيفية التي يعالج بها توفلر هذه الظاهرة - ظاهرة المعرفة الإنسانية-. وربما يختلف توفلر مع ليوتار في زاوية النظر المنهجية في تشخيص ظاهرة المعرفة بما هي محور الموجة الحضارية الثالثة، ففي حين ينطلق ليوتار من منهجية فلسفية أكاديمية، نرى توفلر يغلب عليه المنهج التطبيقي، إذ نظر توفلر إلى المعرفة في بعدها التقني والعملي في الممارسة الاجتماعية والسياسية المشخصة وهو بذلك جمع بين الماركسية والبرجماتية، في إلحاحه على النتائج الاقتصادية من جهة وعلى النتائج العملية المتحققة أو التي سوف تتحقق جرى انتصار ثورة الموجة الثالثة. إذ يرى أن صعود اقتصاد الموجة الثالثة عالية الترميز لا يفسرها الإفراط في استخدام الكمبيوتر أو مجرد المناورات المالية للتأثير في الأسعار، و إنما يجد تفسيره في الفوران الهائل في القاعدة المعرفية للمجتمع، و يرصد توفلر نتائج ثورة الكمبيوتر في حياة المجتمع ما بعد الصناعي في عدد من المظاهر والتجليات في مختلف أنساق الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية والأسرية أي أن كل شيء في حياة الإنسان أخذ يتغير بعنف، وكل من سيقدر له أن يعيش على ظهر هذا الكوكب في هذه اللحظة المتفجرة سيشعر بالصدمة الكاملة للموجة الثالثة في حياة هذا الجيل.

فالموجة الثالثة ستجيء بأسلوب حياة جديدة تمامًا، يتأسس على: مصادر طاقة متنوعة ومتجددة، وأساليب إنتاج تجعل خطوط الإنتاج في المصانع أشياء عتيقة انتهى زمانها، وأسر وعائلات جديدة غير نووية، ومؤسسة من نوع جديد يمكن أن نسميها «الكوخ الإلكتروني» ونرى مدارس وشركات ونقابات مختلفة مستقبلية تختلف عن المألوف حاليًا اختلافًا جذريًا، وتخط لنا الحضارة البازغة قواعد جديدة للسلوك، وتحملنا إلى ما بعد التنميط والتزامن والتمركز بعيدًا عن تركيز الطاقة والمال والسلطة.

هذه الحضارة الجديدة لها رؤيتها المميزة للعالم، وطرقها الخاصة للتعامل مع الزمان والمكان والمنطق والسببية ولها مبادئها الخاصة لسياسات المستقبل. بيد أن المثير للفزع في رؤية توفلر لبزوغ الحضارة الجديدة يكمن في كونه لا يرى في ما يشهده العالم الراهن من صراعات وتمزقات

وأزمـات وحروب- إلا مظهـرًا من حالات المخاض والآم الوضع للجنـين القادم، إذ أنه لا يعير أهمية تذكر لمشـكلات حيوية متفاقمة كمشكلات: الفقر ومشكلة التخلف والأمية والهيمنة الأمريكية والتسـلح النـووي، والقيم الاسـتهلاكية، وتفـكك المجتمع والتفسـخ الأخلاقي، ونتائج العلم والتقنية لا سيما في الثورة البيولوجية وعلم الوراثة والاستنساخ على حياة الإنسان المعـاصر وغيرهـا، وهي المشـكلات التي يرى فيها آخـرون أمثال (روجيه جـارودي، وجاك دريدا، وناعوم توشومسكي) تهديدًا قويًّا للحضارة الغربية الأمريكية.

الخلاصة

حاولت هذه الدراسـة أن تسـلط الضوء عـلى واحد من ابرز فلاسـفة التاريخ الأمريكي المعاصر «آلفين توفلر» في نظريته «حضارة الموجه الثالثة» إذ كشـفنا عن ما تنطوي عليه هذه النظرية من معاني ودلالات خطيرة على حياة الشعوب المعاصرة والمستقبلية.

وقد توصلنا بعد الدرس والتحليل إلى الاستنتاجات الآتية:

١. ثمة إحسـاس متزايد بسرعة المتغيرات التاريخية العاصفة التي يشهدها العالم المعاصر، ويتجلى ذلك بكثرة الدراسات والكتابات المتواصلة التي تحاول توصيف حقيقة المشهد التاريخي الراهن.

٢. هنـاك اعتراف واسـع النطاق بعمق الأزمـة البنيوية التي أصابت الحضـارة الأوروبية الغربيـة الأمريكية؛ وهذا ما افضى إلى صعود النبرة التشـاؤمية التاريخية والثقافية عند عدد كبير من المفكرين الغربيين بشأن مستقبل الحضارة الغربية الأمريكية.

٣. وسط هذا المشهد المضطرب بالفوضى والتصورات الكثيرة تأتي نظرية «حضارة الموجة الثالثة» الفين توفلر بمثابة نجدة من السماء لإنقاذ مشروع الليبرالية الأمريكية الجديدة الذي يتخبط في جملة أزمات ساحقة.

٤. يعد الفين توفلر الصوت المعبر عن رغبة وارادة الليبرالية الأمريكية الجديدة التي تعترف بأزمتها التاريخية ولكنها لا ترى في هذه الأزمة إلا تباشير ميلاد حضارة جديدة.

٥. حـاول توفلر تفسـير التاريخ بما يخـدم ويبرر فرضيتـه التي يرغـب في تحقيقها، إذ لم يرى في التاريخ الإنسـاني كله إلا تدفق ثلاثة موجات حضارية أساسية، هي: حضارة

الموجة الزراعية، وحضارة الموجة الصناعية، وحضارة الموجة المعرفية التي هي حضارة الموجة الثالثة.

٦. يعيد توفلر الصراعات والحروب المشتعلة في عالمنا المعاصر اليوم، إلى أزمة ميلاد حضارة الموجة الثالثة وما يعترضها من مقاومة يأسة من فلول الموجتين الأولى والثانية.

٧. تتميز حضارة الموجة الثالثة بقدرتها على تركيز وتمركز عناصر القوة والسلطة في المعرفة بمعناها الواسع، فالهيمنة على المعرفة سيكون العنصر الحاسم في الصراع عن القوة في العالم الجديد.

٨. الكمبيوتر هو رمز الحضارة الجديدة كما أن الفأس كان رمزًا للحضارة الزراعية والمصنع رمزًا للحضارة الصناعية.

٩. يعلن توفلر بان أمريكا واليابان وأوروبا هم رواد حضارة الموجة الثالثة الجديدة التي يتعين أوان عليها أن تخوض الحروب والصراعات الدولية حتى يتم لها النصر المحتوم في القرن الجديد.

١٠. أكد توفلر بان دول الحضارة الجديدة ستتحول إلى دولة خدمات بتحقيقها السيادة المؤسسية على الأساليب الجديدة لخلق المعرفة واستثمارها.

إنَّا وأن كنا لا نتفق مع الفين توفلر في تفسيره لمسار التاريخ العالمي المعاصر، فمن الأولى بنا التعرف على المنطلقات الفكرية والأسس الفلسفية التي تفسر إلى أقصى حد ممكن فكر وسلوك القائمين على إدارة قوة التاريخ العالمي الراهن إي الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان والصين...

المراجع

١. تبدو، س. هيمور، تأملات حول التاريخ والمؤرخين عرض وتحليل مصطفى العبادي، مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد العشرون.. العدد (١) يونيو ١٩٨٩م، ص٢٦٠.

٢. هنري لوفيفر، نهاية التاريخ، ترجمة د. فاطمة الجيوشي، دمشق وزارة الثقافة ٢٠٠٢م - ط١ - ص٧.

٣. آلفين توفلر، خرائط المستقبل، ترجمة أسعد صقر، اتحاد الكتاب العرب دمشق، ١٩٨٧م ط١ - ص ٢٥٢.

٤. آلفين توفلر، تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة ترجمة فتحي بن شتوان ونبيل عثمان، الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا ط١ - ١٩٩٢ - ص ١٥.

٥. آلفين توفلر، بناء حضارة جديدة، ترجمة سعد زهران مركز المحروسة للبحوث، القاهرة ط١ - ١٩٩٦- ص ٢٠.

٦. ابن خلدون المقدمة، دار العودة، بيروت دون تاريخ، ص ٥٠.

٧. إدوار كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر الكيالي، بيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر -ط٣ - ١٩٨٦ - ص ١٠٨.

٨. قاسم المحبشي، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر، ارنولد توينبي موضوعًا، الهيئة العامة للكتاب، صنعا، ٢٠٠٦.

٩. دافيد مارسيل، فلسفة التقدم، جميس، ديوى، بيرد، وفكرة التقدم الأمريكية، ترجمة خالص المنصوري، معطيات ناقصة، ص ١٧٨.

١٠. محمد عابد الجابري، الماضي والمستقبل.. أيهما يحكم الآخر؟ الوحدة العربية بيروت، ط ٢٠٠٤.

١١. آلفين توفلر، حضارة الموجة الثالثة، ترجمة عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا دون تاريخ ص ٢٥.

١٢. جان فرانسو اليوتار، الوضع ما بعد الحداثي، تقرير عن المعرفة، ترجمة أحمد حسان، دار شرقيات، القاهرة ط ١٩٩٤.